الاستاذ الدكتور
جميل موسى ضباب الزيدي

الحُلم ولد هناك

(سيرة ذاتية)

الحلم ولد هناك
د. جميل موسى ضباب الزيدي
٢٠٢٢

الدكتورجميل موسى ضباب

الحُلم... ولد هناك

(سيرة ذاتية)

بغداد 2022

345,01
ض 222 ضباب، جميل موسى
الحلمُ...ولد هناك/ سيرة ذاتية/ جميل موسى ضباب.
ط 1 _
بغداد: مكتب زاكي /2022
/ ص ؛ سم
1- سيرة ذاتية . أ . العنوان
م. و.
2022/ 936

المكتبة الوطنية / الفهرسة أثناء النشر

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (936) لسنة 2022

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

يمنع استنساخ او طباعة الكتاب او اي جزء منه من دون علم المؤلف

الفصل الاول

(1)

(موسى) شاب ذو بشرة مشربة بسمرةٍ بدوية، معتدل القامة مائل الى النحافة. يعيش مع عائلته التي تتكون من أمه وأخيه غير الشقيق. فَقَدَ أباه وعُمُره لا يتجاوز ثلاث سنوات، وكان المعيل له اخوه الذي يكبره بأعوامٍ عديدة.

بعد ان ضاقت بهم سبل العيش، وحدوث صراعات عميقة بين اخيه وعمومته، ارتحلوا من قريتهم(بني زيد) الى قرية اخرى من الطرف الجنوبي من الريف الذي يغفو بسلام على جانبي النهر، الذي يسكن فيهما أقارب والدته.

سكنوا في بيت من القصب، عند الجهة المطلة على الضفة الغربية من النهر، بعد ان استغلوا مساحة من الارض الزراعية بالاتفاق مع مالكها، على تقسيم الانتاج السنوي لمحصول الرز وهو المناسب للزراعة الصيفية

حسب الشروط السائدة في الريف، في حينها لم يكن هناك ركن اكثر امنا واعظم مسرة واوفر طمانينة من ذلك المكان. علماً أن فصل الشتاء يخلو من الفعاليات الزراعية، لكون الارض تغطى اغلبيتها بالمياه، ولم يعتدْ سكانها على زرع ايّ من المحاصيل الشتوية المعروفة، أما لسبب الجهل بها، او لأسبابٍ ريفيةٍ وبيئيةٍ اخرى.

في إحدى السنوات، دعاهم احد اقاربهم الذي يسكن قريباً من أحد الجداول المتفرعة من نهر الغراف (فرع من نهر دجلة) من جهته الشرقية، ليشاركوه محصول الحنطة، الذي هم في حاجه له. يمتلكُ أهل الشاب عدداً من الأبقار الطاعنة في السِن، والتي تعتز بها العائلة، لكونها تلد الإناث، وذات ضرعٍ كبيرٍ وعريض، وبعروق لبنية واضحة، وهذا يعطيها قابلية انتاج من الحليب مقبولة جداً، بالمقارنة مع بنات جلدتها. يذهب هذا الشاب بِهِنَّ أحيانا الى مكان بقايا محصول القمح للرعى..

شاءت المصادفات ولأكثر من مرة، أن يُعاكس فتاةً صغيرةٍ، وهي شابة مكتنزة الجسم، ذات وجنتين بارزتين بلونٍ خمريّ، متوسطة الطول، كثيرة الحياء، جاءت بعد ثلاث ولادات لم يكتب لهن الحياة. كانت تمقت تصرفه الفظ معها.

اختمرت فكرة الارتباط بهذه الفتاة عند هذا الشاب، من دون إرادتها، أو استقبال إشارة الموافقة منها، وطلبها عدة مرات من اخوانها، لكون أبيها توفاه الله وهي صغيرة، ولم يحصل على موافقتهم.

كان عمها حاج والي تاجراً معروفاً في مدينة الغراف (محافظة ذي قار) شديد المعارضة لهذا المشروع، ولكن اصرار هذا الشاب وتدخل بعض المعارف، قادت الامور نحو الرضا والتوافق واتخذت اجراءات الزواج المعروفة.

عادت العائلة الى قريتها السابقة، والفتاة بمعيتها. قلقت الفتاة من الظروف التي فُرضت عليها وعانت البؤس وقساوة التعامل من العائلة، وكتمت معاناتها بصبر لم تجد

عنه محيدا فسكتت على الحزن والضيق. ولاحظ اهل القرية ان هذه الشابة شديدة الالتزام، وتُغالي بطهارة لوازم البيت، حتى تجد توافقا مع طهارة روحها.

لم يمضِ الزمن طويلا؛ رزقت بطفلةٍ جميلةٍ، وكتمت حنق العائلة بالمولودة، ولم يظهروا على الاقل فرحة عابرة بالبنت البِكِر.

حَمَلت مرةً اخرى، وهي تنتظر الولد الذي يبهج العائلة، ولكنها كانت بنتاً أجمل من اختها الكبرى، وكان اعتقادها راسخاً برحمة الله، وإيمانها به الذي ثبتَ أركان عائلة الفتاة ذات الاتجاه الديني الغريزي، وتجاهلت بعفوية موضع وجوم هذه العائلة غير المقصود، بل هي عادات متأصلة بالريف وطباعه، لأنها لم تمنح لهم الولد.

(2)

الولادة الشاقة

حَمِلَت على مضض مرة اخرى، وكانت تجهد نفسها نهارا بين الزرع، وتربية المواشي، وانجاز أعمال البيت لإرضاء عائلة زوجها، ولم تجد الوقت لتستريح الا عند النوم الذي يكون متأخراً بعض الأيام، ناهيك بعدم تناول الغذاء الذي يكفيها وجنينها الذي اخذ يُثقِلْ حركتها يوما بعد يوم..

في ليلة اكتمل فيها القمر؛ استشعرت ألام بآلام المخاض، التي أبعدت عنها النوم بعد عمل شاق في رعاية الأبقار، وزرع شتلات الرز في يوم قائظ لاهب.

استيقظت على صوت المؤذن الذي كان يصدح به رجل طيب(الحاج محمد) من شمال القرية عند وقت الفجر بعد، ان تبيّن الخيط الابيض من الخيط الاسود.

نهضت فوجدت نفسها متثاقلة، فأدت الصلاة جلوسا، وختمتها بدعاء طويل ترجو ان تكون ولادتها في بيت أهلها الذي يقع في اطراف قريةٍ، تلمح معالمها بصعوبة عندما تكون في مكان مرتفع من قريتها الحالية، وهذا ليس بعيدا، ولكن لحملها الثقيل وأوانه قد يحيل دون تحقيق أمنيتها..

انفرجت سريرتها، كأنما السماء استجابت لدعائها وهي غارقة في التفكير عميقًا، قد يباغتها الطلق وهي في دار زوجها، ولم تجد من يهتم بها او يرعاها، او تُهمَل دون دراية وتترك مع قدرها، ولها تجربة عند ولاداتها السابقة التي اعتادت ان تكون بين أهلها وبالتراضي مع عائلة زوجها..

نهضت بعد انتهاء صلاتها، وجمعت كبرياءها، ونظرت باتجاه قرية أهلها التي لم تَرَ منها غير مناطق تغمرها المياه، واحيانا تلول ترابية اثرية تقع في منتصف الطريق، وبمحاذاتها قرية متناثرة البيوت كالأشباح..

تأزرت بعباءتها الصوفية ذات اللون النيلي، وجعلتها تحمل ما يكتنفه رحمها باتجاه صدرها عسى يمنع مؤقتا حرية إطلاق حملها، وبدأت تمشي بتمهل متحمّلة، لكي لا تحدث اهتزازا يثير غضب الجنين فيطالب بحريته..

وصلت الى موقف عبور مستنقع من الماء عميق، ومسافته لا يُستهان بها، يستعين المارة بزورق لعبوره.. وبقيت تنتظره لكونه في الضفة الاخرى، ويستغرق وقتاً حتى يعود.. وهي تعصر يدها بالأُخرى خشية المجهول. استقلت الزورق صوب الجهة الاخرى، ومدت بنظرها شمالا نحو قرية أهلها.. واستأنفت السير عبر طريق بين صعود تطل منه على مساحة مائية محددة، والذي يثير سكونه بين الحين والآخر شجار الحيوانات وأصوات الطيور، وبين هبوطها الى وادٍ بمستوى المياه يغيب عنها الافق خلف تلال خالدة مما يعصر فؤادها خشية الحيوانات المفترسة التي تتسلّل من المياه باتجاه المساحات اليابسة.

تابعت سيرها مع ظلها وهي تلتهم بعض الأحجار من الطين الأحمر الجاف، الذي يحتوي على عنصر الحديد المهم في بناء مادة مضادة لفقر الدم، والذي لم تحصلْ عليه، لافتقار الاغذية التي تتناولها وهي محدودة المصادر لظروف المعيشة القاسية..

نشف فمها من مضغها للأحجار، فمدت كفها الى ضفة المستنقع، فحجزها أزارها الذي مانع ثنى بدنها، مما ارغمها على ان تتمدد لتغترف الماء لتروي عطشها. ارادت ان تنهض، أعاقها مرة اخرى، وزحفت قليلا واتكأت على عمود قصير نادر وجوده في هذا المكان، غير انه كان من بقايا احد رعاة الجاموس لحجز (الحولي)[1] عن امه للحصول على الحليب منها .

اتجهت صوب اهلها، بين وازع الخوف، وثقتها بالله ان يمدها بقوة التحمّل، واشعة الشمس التي بدات رحلتها نحو الغرب تصب حرارتها بتزايد على جسدها، وهي تعاندها

(1) أسم يُطلق على صغير الجاموس.

بصبر مع مشاعر التفاؤل عندما بدأت ملامح وجهتها تظهر بتزايد مع الأفق، بعد ان أصبح سيرها مستوياً، ومن شدة فرحها أطلقت ساقيها للريح متجاهلة ثقلها من أثر الحمل، إلا حركة مفاجئة تألفها سابقا من جنينها ارجعتها الى مخاوفها وادركت حينها بأن الجنين ربما تضايق من شدة الأزر، فأرخته قليلا، فسبب لها تحديداً في سيرها، وأخذت مرةً ترخيه، وأخرى تشده، واخذت تقترب ببطء من مزارع لسكان قرية اهلها وهي بدت مروجها الداكنه تزهو بجمالها الساحر، وجاء الفرج بعد ان عرجت على احد العوائل من معارفها وهم يتسابقون مع الوقت لشدة الحرارة فالشمس اصبحت في مركز رؤوسهم تنذر بوقت الصلاة، او اخذ راحة لتناول الغداء المتيسر وهم في ابعد نقطة عن القرية استقبلتها العائلة وتفاجأوا من حالها بعد ان داهمها الاعياء، وأثارت في نفوسهم وشائج العطف عليها. وصل خبرها الى أهلها، وهرع اخوها واختها لاستقبالها خارج القرية.

لم يتأخر جنينها كثيرا ونال حريته في عام 1953؛ كان ذكراً مشترك الشبه بين امه وأبيه. كانت فرحتها غامرة ونابعة من عمق فؤادها شاكرة نعمة الرحمن عليها وعسى ان يكون هذا المولود كأس الشهد الذي يحلي مرارة العيش التي تمقته ويُهدىء من غضب عائلتها اتجاهها لولادتها بنتين.. اخذت قسطا من الراحة كان كافيا لتعيد حيويتها ونشاطها، ولكن كان في داخلها شوق شديد لطفلتيها اللتين تركتهماعلى مضض خلفها.

عادت مع مولودها الى عائلتها، ومنحوا الطفل اسماً غير ما هو متعارف عليه في القرية الا نادرا سمّاه والده وقتذاك؛ (جميل) بعد ان شاعت المفاهيم القومية التي قادها الرئيس المصري عام 1952، وكان دعاتها بعض المعلمين في المدرسة التي أُنشئت حديثا، وأبوه صديقاً مقرباً من عددٍ منهم.

الفصل الثاني

(1)

طفولةُ عَلى حافةِ الاهوارِ

نشأ الطفل (جميل) في قرية(آلسهلان) تتشح بالندى والخضرة، وتأتزر بالنضارة والبهاء، ينبض فيها كل شيء حتى كتل الطين، هادئة وادعة ترتمي في احضان السكون العميق ليلا لم يعكر صفوه سوى صياح ديك ينبعث فجاة يعلن لسامعه بان الفجر يوشك ان يبين، ونسمات البلل تقبل من الاهوار الواسعة التي تتاخم القرية من الغرب وفي الصباح يهزج بها الطير والزرع والماء، إلا الاطفال لم تمنحهم هذه الطبيعة الساحرة فرصة المرح والتمتع بطفولتهم السوية ولم ترتوِ نفوسهم لهوا ولعبا لتعسّف العادات، وطبيعة العيش وقد ينبعث منهم برغم قساوة الحياة اطفال تفوق عقولهم اعمارهم كانهم اشجار الورد تهدي الزهر

الجميل وهي لم تعلُ عن التربه باشبار ولربما كان له نصيب من هذا الوصف .

تعيش قريته بهدوء على نهر يدعى (اركاله) وهو منبثق من نهر اوسع (أبو دوانيج) المتفرع أصلا من نهر الغراف، المتصل بنهر دجلة عند مدينة الكوت. يغضب النهر ويهيج في الشتاء ويعبر عن هيجانه بكمية المياه التي تصيبه حتى التخمة، ويحاصر بعمد تلك البيوت المتاخمة له من جهة، وتزحف مياه الأهوار نحوها من الجهة المقابلة، مما يحدد حركة السكان في كثير من الأحيان الا ما ندر. الربيع فيها مميز تتعشق فيه اناشيد الطيور مع نور الشمس البهيج بعد انشقاق رداء الشتاء الكثيف فتلبس الاشجار حلتها وتزين الطبيعة بألوان الورود والازهار التي تخلب الالباب. فتبدا نشاطات الزراعة وصيد الطيور والاسماك في هذا الموسم وتتدفق رغبة شديدة في قلوب سكان القرى للتسابق مع الزمن لانجاز مايحسنون.

ترعرع في بيئة تتناغم فيها الاهوار مع المساحات الزراعية وما تكتنفها من حياة احيائية متنوعة، تكثر فيها حيوانات مزعجة للفلاحين مثل الخنزير الذي يتعمّد إتلاف محاصيلهم الزراعية مرة، واثارة الرعب لديهم مرة اخرى.

ومن جانب اخر تكون الاهوار مكاناً رحباً لاستيعاب مياه البزل لأراضيهم، خاصة عند زراعة الرز، وقد تكون طول مدة السنة مصدر رزقها من الاسماك والطيور، التي تسند سلتهم الغذائية بعناصر المَنَعة والقوة.

من اهم الوجبات الغذائية التي يتم تناولها هناك هي الحليب ومشتقاته، وتتفاوت العوائل بما يمتلكون من عدد ونوع الحيوانات الداجنة، مثل الجاموس(عدد محدود جدا) والأبقار التي هي الاكثر انتشارا في تلك القرى، وبعضهم يربون الاغنام بأعداد قليلة جدا.

ينامُ سكان القرية مبكراً، خاصة في فصل الشتاء الذي يجف فيه الضرع والزرع، وتتعرض المواشي ذوات مصادر المادة الرئيسة للغذاء، لشحة غذائها ومحدودية الحركة

والتنقل طلبا للكلأ، بل تعتمد على ما يخزنه سكان القرية، وما يجود به موسم الصيف، غير انه برغم كرمه على الانسان والحيوان، يُعاني السكان من بعض الازعاجات المملة التي يطلق فيها العنان لكثير من الديدان والحشرات، واكثر نغصا لكل من الانسان والمواشي مثل حشرة البعوض ليلاً، والذباب نهارا، فيلجأ سكان القرية لاستعمال المداخن ليلاً محتسبين اتجاه الريح ليغطي مساحة اوسع لصد هجمات البعوض الضارية التي تقض مضاجع المواشي، رغم حركة ذيولها كأداة دفاعية، للحد من اندفاع هذه الحشرات المؤذية.

اما الانسان فلم يسلم من مباغتته ليلا وتتربص في أي فرصة للانقضاض بكراهية على جلده الذي يضعف امام خرطومها الدقيق لتجيد الغرز بتحدٍّ، كأنها فارس تجاوز دورة تدريبه بتفوق، ولكن الانسان تفنن بدرء خطرها، فقام بخياطة قماشٍ خفيفٍ ذي مسامات نافذه تدعى (الناموسية) تحجب هجوم البعوض المؤلم، وتشكل صندوقاً خماسيّ الاضلاع عدا المساحة الملامسة للأرض ويكون

حجمها يحسب عدد الافراد، وغالبا ما يكون هذا الأنموذج يبنى على مكان مرتفع غالبيته من طين يدعى(الصوباط) يجهل مصدر تسميته، وهو ذو ركائز طولية، بين كل ركيزة واخرى فراغ يستغل لخزن المواد الغذائية والأشياء الأخرى.

(2)

عبث الطفولة

لم يتمتع (جميل) بالطفولة ومرحها كأقرانه، بل جُبِل على الجد والتشدق بالرجولة مبكرا، وهذا طابع أُسري تفرضه البيئة، وقد يُشبِع غريزته من اللعب في طفولته وتطوير ادراكه الاجتماعي المفعم بالنشاط، مما هو شائع في الريف ليعزز عنده او يعوضه عما يتمتع به اقرانه في مجتمعات مدنية، وتجعله يركب ناصية الحياة مبكرا ويلغي كل ما

جاء به علماء النفس مثل (جون بياجيه)[2] و(فيجو تسكي)[3] و(اريك اريكسون)[4] الذين ينظرون الى نفسية الطفل على انها نادرة ومعقدة، آخذين بعين الاعتبار الصفات الوراثية للطفل والعوامل البيئية المحيطة التي تحدد مرحلة طفولته لتصقل شخصيته، أما هو فكان تأثره العميق بنوع المهارات التي يتلقاها بشغف من محيطه، ليتشدق بالكبار من قريته مما يتمتعون به من تلقي المدح والثناء على اي عمل ينفردون بإنجازه وهو محروم منه لصغر سنه..

(2) الابن الأكبر للسويسري آرثر بياجيه والفرنسية ريبيكا جاكسون. كان عالم نفس وفيلسوفاً سويسرياً وقد طور نظرية التطور المعرفي عند الأطفال فيما يعرف الآن بعلم المعرفة الوراثية

(3) عالم روسي وهو أحد رواد تطور الفكر السيكولوجي، وقد طرح فيجو تسكي نظريته المعروفة بـ (نظرية الثقافة الاجتماعية– تنمية المنطقة المركزية) التي لم تُعرف في الغرب حتى عام 1958 ولم تنتشر حتى عام 1962.

(4) عالم نفس تطوري ومحلل نفسي دنماركي–ألماني–أمريكي معروف بنظريته في التطور الاجتماعي للإنسان، أصر دائما على أنه كان فرويدياً، وأن أفضل وصف بأنه من الفرويديين الجدد.

اعتاد في كل صباحٍ باكر أن يشارك في عمليات حلب الأغنام، وكأنه في حلبة مصارعة مع بعضها لنفورها، ويخرج مع بعضٍ من أهله للرعي، ويبقى أوقاتاً متفاوتة حسب جهة مكان الرعي ويساهم مرة اخرى بحلب الاغنام عند المساء، خاصة في فصل الصيف الذي تتمتع به المواشئ بمصدر غذائي وفير..

كان نصيبه من الحليب مُرضياً، الذي تخصّهُ به جدته من ابيه، التي لها علوّ في البيت مكافئ له او تميز لانه الولد الوحيد بعد اجراء عمليات التسخين والتخمير والتحريك لينتج الزبد واللبن، والرز الذي يزرع صيفاً، من اهم مصدر الغذاء من دون غيره.

في شهر نيسان يبدأ النهر ينفض تخمته ويبسط نفسه ذليلًا عندما تغور مياهه ويتنازل عن عنجهيته.. ولكنه يبقى كريما في نهاية فصل الربيع التي تهطل فيه الامطار بغزارة عند منابع نهر دجلة بحمله كميات مهمه من الغرّين ذات الأهمية في تهيئة البيئة الصالحة لزراعة الرز.

عندما اشتد عوده بعض الشيء، وتجاوز السنة العاشرة، شارك في تلك الفصول من الزراعة. كان دوره قاسياً، لم يناسب عمره، وكان يُجهَد بسحب أداة مثلثة الشكل تُسمى (المرازة)[5] في طرفيها حبال سَحبٍ، وعمّه يضغط برجله بشده حينًا ويخفف عنه حيناً اخر رأفة به.

نبات العاقول، قد أخذ منه مأخذًا لكثرة اشواكه اللعينة التي طمعت في قدميه اللينتين.. وعمّهُ يسمع تضجره من ألم وخز هذا الشوك البغيض ويمازحه بكلمات تشد من ازره كونه وحيدا:

(ها يبني.. شوف أبناء الناس تعذبني)..

وهو يكتم ضجره مرغما بين خوفه من العقاب وتشدقه برجولته التي حلم بها قبل أوانها.

تربى الصبي في كنف عائلةٍ لم يسمع منها اية كلمة مدح او ثناء الا دُعاء أمه الصامت وتشجيع عمه اثناء ما

(5) آلة تستخدم في قلب الحشائش والعاقول من سطح الأرض.

يتوافق مع ما يرضيه من العمل، اما والده فلم يعطِهِ اهتماماً يشد من أزره ويعتد بنفسه، بل كان يلمس منه الغلظة والتجهم، وهو طابع ريفي متوارث برغم انه اختلط بمعلميّ المدرسة وكسب صداقتهم ولكنه لم ينسَ كرم والده بتوزيع بعض النقود ذات القيمة الصغيرة عند تسليم راتبه الشهري، بعد ان تدخل صديقه (معلم صلاح) بتعيينه حارساً في مدرستهم، ويقوم وقتذاك مع اخواته بالدعاء له عند الغروب بدوام الحال. كان كثير الحركة ويحاول أن يتشدق كصبي كبير ليلفت الانتباه إليه، ويريد ان يشارك الكبار في كل ما يحسنونه.

مارس كل النشاطات الريفية ومنها صيد الطيور، الذي أجاد فيه بالفخاخ والاطلاقات النارية، وقد يتمادى اكثر بعمل نشاطات أُخرى لولا خشية اهله ومحاصرته وتحديد حركته. أجاد السباحة، وحاول منافساً ان يتصدر اقرانه، وتعلم صيد السمك وكان بارعا، وينتظره رزقه كما كان ينعته أقرانه، وتعلم كل انواعه حتى بعضها الذي كان يتطلب منه جهد سفر يوم مع عمّه بعد إلحاح منه لجلب

اشجار(الزور)[6] لبناء آلة صيد يدوية تدعى (الهوار)[7] وأصبح عدد من ابناء القرية يقصدونه في بناء هذا النوع من الفخاخ، وكان في وقتها جديّاً في عمله محاولاً لفت انتباه الاخرين.

نعم كان يبحث عن شيء ينفرد به كي ينال الاستحسان من الاخرين. هذا السلوك الطفولي قد يكون استثنائيا من المختصين، لان ما يحسنه المرء تُظهِر الرغبة والميول والدوافع له كما يُعتقد في مراحل الطفولة الاولى، اما أن يغادر كل ما تعلمه في طفولته، ويتخلى عنها لينتهج منحىً آخر، فهذا تميّز قد يحدده ما تمنحهُ الحياة وبهرجتها عبر مراحل حياته بما يلزم ليكون ذا شان في المستقبل.

احيانا تُكتَسب الثقة من كل تجربة تنظر فيها مليا، فنالها من ذلك العمر عندما شارك والده وجدته بإخفاء الاوراق النقدية التي جنوها من بيع الاغنام ومنتوجها من سمن

([6]) نوع من الاشجار يشبه نبات الصفصاف يكثر في المناطق الصحراوية.

(7) تُصنع من رصّ عيدان الزور بطريقة منظمة على شكل مخروط اسطواني يحجز السمكة بداخله عند وقوعها عليه.

وصوف في تجويف صغير من حائط الطين لغرفة النوم ويسدلوا عليها ملفوف من غزل الصوف للتمويه من دون ان يلاحظ منهما اية ريبة او شك منه، نعم كانت ومضة ثقة اضاءت في نفسه الطرية نورا ساطعا من داخلها استدل به في سنينه العجاف.

لم يقف عند هذا الحد بل كان والده يأتمنه على مدخراته الخاصة التي يخزنها في (صندوق حديدي) يحتوي على انواع مميزه من التبغ وعلب السكاير مثل (الروثمان والكريفن والجمهورية) ولها هيئات زاهية وانيقة تجذب الناظر، واعتاد ان يتولى فتحه عند طلب والده اي حاجة منه دون ان تجذبه تلك الالوان ويقع في شراك شيطنة التدخين الذي استدرك مخاطره بذاته من دون نصيحة او تحذير.

الفصل الثالث

(1)

رُسل الرحمة

استُحدِثَتْ مدرسة ابتدائية في الطرف البعيد من الريف المجاور، مبنيةٌ من القصب، والطريق اليها لم يكن سهلا.

كان النهرُ عائقاً رئيساً بين قريته والمدرسة، فضلاً عن كثرة الحواجز المائية والسواقي والترع التي يصعب على الصبيّ بهذا العمر، حينها استُقدِمَت كتيبة تعليمية مقاتلة(عام 1959)، فرسانها خمسةُ معلمين كان سلاحهم القلم.. تجشموا قساوة الطريق متنقلين بين حافلة وزورق وسيرا على الاقدام، ليحلّوا عند قريةٍ بعيدةٍ في أعالي الأهوار عند جنوب مدينة الشطرة يغازل شواطئها الفيضان بين حين وآخر، وقد يُباغتها بغضب مصحوبٍ برياحٍ جافةٍ عند الشتاء ويستقر سكنهم في بيتٍ مجاورٍ للمدرسة، التي

تحيط بها أَراضٍ زراعية تتفاعل بشغف مع الماء خاصة في فصل الشتاء فتحدّ حرية حركتهم.

إنّ قتالهم في تلك الظروف القاسية، لم يأتِ صدفةً، بل قدرهم الذي احبوه، وكان تصميمهم يتدفق بعنفوان الشباب ومن ينبوع أصالتهم.. ويقينا يدركون شراسة العدو(الجهل، الأمية) الذي يرومون اجتثاثه بعد ان غرس مخالبه بعناد في تلك البقاع، فقد نثروا عطر الامل وشذى الحياة وزرعوا نبتة الفضيلة بدون مِنّةٍ في دروب المستقبل.. وكانوا متيقنين منه في وقت يجهل ذلك..

اصر والده ان يلحقه بها، وكان اصغر تلميذ في الصف، وعند زيارة احد المشرفين اخرجه مدير المدرسة كونه صغيرا كما يبدو، ولأنه لا يملك الجنسية التي من خلالها تكون له حجة على الزائر عند اعتراضه عليه لصغر سنه غير المناسب للالتحاق بالمدرسة التي أحبها وكانت هدية القرية واهلها الطيبين له. كان الحظ السعيد له من تلك

الحقبة بعد ان استبسل كمتعلم تحت رعاية تلك الكتيبة في المرحلة الاولى.

اطل عليهم اول يوم شاب وسيم مترف ذو أنفٍ دقيق، هادئ الطباع، يمزج كلامه بين ابتسامة تارة، وقهقهة محببة تارة اخرى لم يدرك مكنونها الا بعد زمن طويل اسمه (المعلم صلاح عبد فهد) كان يحاكيهم همساً: (جئنا لنعتقكم من أسرِكم).

كانوا يرددون معه ببهجة وبراءة:

نحن صف الاول احسن الصفوف ..

والما يصدق بينا خل يجي ويشوف

مع تصفيق يضيف مرحاً لم يألفوه، وتوافق بينهم لم يهتدوا اليه من قبل.

ذلك الشاب نمت بينه وبين والده صداقة متينة لم تنقطع، وبقى يتواصل معه بودٍّ نادر، لم يبخل عليه بمشورة.. ولن يتأخر بمساعدة يطلبها.. حتى كاد ينال أُبوته بشرف..

وبقى يتابع احلامه فيه مفتخرا بتلميذه الذي ساهم بصياغته من ذلك الزمن.

اما درس القراءة فكان اشد تشويقاً، وفارسه مقاتلٌ شديد الهمة متوسط الطول، يترقب خطواته الى الصف بمشيته المتأنية، شاب مترف متّقد الوجنتين تعلو ملامحه علامات التحضر اسمه (المعلم غازي عزيز الزيدي).

كل ذلك لم تحجبه ان يتآلف مع تلاميذه بسرعة، وبدأ معهم يغازل الحروف ويغنون الكلمات حتى وصلوا الى درس (فردٌ) في كتاب القراءة الخلدونية. تريث في تهجيها واستشار بعضاً من زملائه، انها لقطة صباحية شتائية تحت دفء اشعة الشمس التي كانت متسامحة معهم ذلك الصباح، وتعني عمق الأُلفة بينهم. كان المقاتل الذي لم ينفك ان يتابعه تشجيعا بكلمات تجد وقعها على عتبة الفؤاد، وانهم واقرانهم كان القدر المحبب للجميع، ويحملون بطيب خاطر رسالتهم، فطابوا قدراً ورسالة.

كانت مراجعته لدروسه اغلبها في النهار الا في ايام الامتحانات فقد تستمر ليلا فتلجأ اخته الكبرى ان تحضر له اداة الإضاءة المصنوعة محليا من احد القناني الفارغة، وتملؤها بمادة النفط غير المتوفر بسهولة، وتقطع احد اوراق البردي المتوفرة وتخرج لحاءها وتثبتها على عنق القنينة بمادة العجين التي تجف سريعا بعد ملامستها للحرارة، ويحتوي هذا اللحاء على ممرات نافذة دقيقة تسهل تسرب مادة النفط الى الاعلى لتغذي مصدر الإضاءة.

في يوم شتائي بارد مشؤوم تعرضت مدرسته التي يعشقها حد الوله لكارثة نتيجة حريق احمق التهم جميع مرافقها، كان يوما حزينا لأهالي القرية الذين جاهدوا لإطفاء النيران اللعينة التي عاندتهم بكبرياء والتي تعاقدت علنياً مع ريح شتائية عاتية منعتهم من التصدي لها، وكان تلهّفه للمشاركة في اطفاء الحريق، فهرع بدوره إذ حاول عبور النهر مرارا ولكن برودة المياه اجهزت على قلبه الصغير لتوقفه، فتراجع حزينا ينتظر الاخبار الكئيبة من المارة.

اكمل دراسته، وبالتحديد في الصف الرابع بِخيمٍ من القماش، في هذه المدة لم يجد صديقاً او زميلاً قريباً من بيته إلا في بيوت متناثرة على ضفاف النهر واغلبهم يلتحقون بالخدمة العسكرية تطوعا او اجباريا بعد انهاء دراستهم في الصف الخامس الابتدائي لظروف المعيشة القاهرة.

كان مطيعاً في قريته الصغيرة لكتابة الرسائل او قراءتها من ابنائها أو إليهم، وهم يقضون مدة غير قصيرة في الجيش، وكانت إحدى الرسائل تحمل شدة لوعة أحدهم من ضيق الانتظار وهو يطلب من أهله البحث عن فرصة للزواج، إذ ختمَ إحدى رسائله بعبارة (متى يبقى البعير على التل)!؟.

كانت القرية في ضيق من العيش لقلة مصادره، والبؤس اسدل ستاره الحزين على القرية وعلامات نكده جلية على محيا سكانها. أما قلة توفر الغذاء اللازم وأمّا شحة

مستلزمات الملبس الذي يقي من البرد القارس في ايام الشتاء الجاف.

كان جميل يرتدي الدشداشة (البازه)[8] التي تكتنف جسده النحيف طوال ايام الشتاء، وهو يقارع ضراوة البرد في ساعات الصباح الأولى، ليس بتلك الدشداشة فقط، بل بما يحمل في صدره من حلم كبير، في ان يتعلم ويشبع غريزته من العلوم التي تؤهله ان ينتقل الى اجواء المدينة التي ابهرته عند زيارة اخواله لمرات عديدة، الذين سكنوا المدينة والتي كان يراقبها بشغف لا حدود له وخاصة في ليالي الصيف من خلال سطح الدار المرتفع قليلا، إذ ينعم النظر الى الاضواء التي تتراقص ببهاء لتتنافس مع اكثر النجوم لمعانا في السماء التي لم تكن متشابهة بل على انواع فمنها النجوم الأولية، والثنائية، والقرمزية، وغيرها، بحسب تصنيف علماء الفلك حديثا، غير ان أضواءالمدينة متشابهة ومعلومة المصدر، التي هي عبارة عن اعمدة

(8) قماش البازه (Napping) هو قماش تركيبي نسيجي بسيط وهو عبارة عن رفع الالياف القصيرة على وجه القماش.

حديدية عالية الارتفاع تحمل قناديلها التي تتوهج عند سدول الليل ليفتح ارشيف ظلامه، وعلى يقين ان هذا المنظر لم يتمتع به أهالي المدينة بل اهل القرى وهم يرون ان السماء جادت عليهم بقطعة نجمية تكرماً وتميزا لهم مما يخلق في نفوسهم حشرجة وغصة من هذا العطاء الذي يرونه سماوياً.

حاز المرتبة الاولى في الصف الخامس الابتدائي وتدرج الى الصف السادس وحينها لم يحصل على الجنسية العراقية مع بقية زملائه من القرية، الأمر الذي أدى بإدارة المدرسة ان تستدعي مصورا من المدينة ليلتقط صوراً (شمسية) لكل طلاب الصف السادس، لكي يتم تزويدهم بهوية اشتراك في الامتحان الوزاري الذي يجري في مركز المدينة.

كان التنافس الشديد بينه وبين احد زملائه الذي كان يكبره سنّاً وبدناً، وكانت الغلبة لزميله في عدد من المواد

الدراسية وخاصة المواد التي تستلزم حفظاً، ولكن في الفصل الثاني اخبرت ادارة المدرسة زميله، بأنه لا يمكن اشتراكه في الامتحان الوزاري لتجاوزه السن القانوني.

تأسى لزميله فالتنافس لم يصهر بينهما الجانب الانساني بل اضفت المسحة الريفية البريئة على علاقتهما الودودة التي لم تجعل ما يؤوله المستقبل على الاقل من قبله.

(2)

حلم في المدينة

في صباح يوم كانت السماء صافية(حزيران1966) توجه التلاميذ وعددهم ينوف على الثلاثين الى مدينة الشطرة لأداء الامتحان الوزاري من موقع مدرسته التي تمَّ تجديد بنائها قبل سنوات من مادة الطين وبشكل هندسي منظم، تتكون من عدة صفوف على شكل مربع ناقص

ضلعاً وجناح ادارة المدرسة يكمل الضلع الرابع وجميعها تحيط بساحة واسعة يتوسطها ملعبٌ لكرة الطائرة.

أقلَّ التلاميذ زورقٌ كبيرٌ مزود بمحرك يشتغل بالديزل، وكان يوما مشهودا لهم وهو يمخر بهم باتجاه الشمال واحسوا كأنهم رُسِل هذه القرية المرغمة على الهدوء الى المدينة الصاخبة التي لم يَغب عنها النور.

كان يصاحبهم معلمهم (هاشم السهلاني)، الذي كُلف بمرافقتهم، وإعطائهم التعليمات مبيناً فيها مكان القاعة التي يجري فيها الامتحان والمستلزمات المطلوبة. استقروا في احدى المدارس الابتدائية ثم تحولوا الى مكان سكن آخر..

كان يبيت ليلاً عند أخواله الذين سكنوا المدينة، وكان صديقه (شيخ علي السهلاني) ملازما له طيل مدة الامتحانات وهو الذي اصيب عند طفولته بمرض حدَّ من حركة إحدى رجليه التي لم تمنعه ان يكون كريما ومحبوبا وذكيا..

في اخر أيام الامتحانات نفد مصروفهما، حتى بدءا يتغذيان الخبز والطماطم، وعند العودة من المدينة فقد صديقه غطاءً ثميناً من الصوف الخالص يدعى (ازار) وأهله عاتبوا (جميلاً) عتاباً رقيقاً الذي أُحرِجَ عندها، لأنه صديقه المقرب وهم يقدرونه كثيرا، وقد حاز على التسلسل الثالث في النتائج النهائية.

أثارت المدينة وبهرجتها في نفس هذا الصبي عند ذلك الوقت فضولاً كبيراً وحماساً لم يستطع كتمانه.. واختمرت في رأسه فكرة التمرد على حياة القرية امتثالاً لقول الامام جعفر الصادق:(عليك بالمدن الكبرى) برغم ان المدينة لم تكن بهذا الوصف ولكن قياسا بقريته الصغيرة ومحدودية اطلاعه، نالت ذلك الوصف. لم يكن هو وحده مذهولا باجواء المدينة بل بقية زملائه الذين اخذوا يتهافتون على دكاكين الحلوى والعصائر والمثلجات ولكنهم استهواهم شراب غازي يدعى(السيفون) مكوناته بسيطة قريب من مذاق الصودا(بيكاربونات الصوديوم) رخيص الثمن كان شرابهم المفضل ولكن ارتشافه بشراهه وفي ايام الصيف

اللاهب اصاب بعضهم بالغثيان او التقيؤ او الخوار. كل شيء في المدينة من مساجد وجسور ومقاهٍ واسواق مكتظة بروادها، وازدحام الناس عند وقت الضحى وهم يسعون كل منهم على هداه طلبا للرزق اثار الفضول في نفوسهم ولاسّما جميلاً حيث كل شيء فيها أَبهره بل سحرته تلك الحياة غير المعتاد عليها فحرص ان يرسم أحلامه من تلك الأيام التي باتت حروفها باهتة في قلبه الضعيف لان شعوره في حينها بالقهر قد تدفع به الاقدار الى غير مايتمناه. بينما كان حلم كل من زملائه مختلفاً عنه فهم كان هدفهم الالتحاق بالمؤسسة العسكرية التي تمنحهم بابا للرزق يحصن عوائلهم التي انهكها العوز والحرمان او على الاقل يسدون به رمق العيش وانتشالهم من وادي الفقر الذي بات مألوفا في تلك الطبقة الاجتماعية.

الفصل الرابع

(1)

درسٌ في الحياة

كان في قريته بستانٌ يعود الى ابي امير، يطل على ضفة النهر من جهة الشرق، اما من جهة الغرب فتتصدى له غرفة طويلة وعالية بارزة من داره التي تحتوي على نافذتين كبيرتين تطل على كل مساحة البستان تقريبا، وفيه انواع قليلة من الاشجار المثمرة بينها شجرة عنب مميزة بدأت تنضج ثمارها وتتهيأ لمغادرة موسم الصيف، وهي تحت اعين المارة وما اكثرهم، ونفدت العناقيد القريبة من تناول اليد مع الأيام، وبقيت العناقيد العالية التي ترتكز على محمل من الخشب رُتِّبَ محليا، لم تُرَ من الخارج الا قليلاً، ولكن النظر اليها ميسورٌ من النوافذ التي يعتاد اصحاب الدار النظر اليها، وكانوا متقصدين ان يحافظوا عليها الى وقت متاخر، فقد يختلف المنظر من خلالها

فتبدو هذه العناقيد المتزاحمة المتدلية كأعشاش طير (الحباك)[9] وتتمازج مع النسيم عندما يهب وتغازله برقصة نحلة الى زميلاتها حين تجد مرامها مما يجعل المنظر يخلب قلب الناظر.

هذا العنب هو من النوع الابيض الذي تتميز حباته بالشكل الدائري كلما تنضج تصبح اكثر شهية للأنفس، وكأنك ترى مزيج السكر لطراوة حبته ولهذا يسيل له لعاب الناظرين ولاسيّما اليافعين.

هذا المنظر ادهشه وصديقه واذعنا الى سطوة الجوع، وقررا ان يأخذا نصيبهما من تلك العناقيد اليانعة، وتشاورا كيف الوصول لها لعلوها اولا ولقربها من النوافذ ثانيا، فتبرع (جميل)، ان يكون بطلاً للاعتلاء لتلك العناقيد وبجرأة مغامر اقتحم السور واقترب من الثمر عِبرَ كثافة سيقان الاشجار وهو يختار اكبرها، وحين قطع العنقود الاول ولكبر حجمه وقوة نصله لم يستجب له لان كفه

(9) نوع من الطيور ينسج عشّه المتدلي بعناية من سعف النخيل.

صغيرةٌ، اختزل جزءاً منه وسحبه بعجل، احدث معها جلجلة الاغصان التي فقدت نضارتها وضاعت ليونتها بسبب جفاف الماء عن عروقها ووهنها في اخر الموسم مما أثار انتباه وفضول صديقه امير الذي كان مارا من الخارج الى داخل الدار عبر رواق تلك الغرفة في تلك اللحظة، ودفع به فضوله ان يلقي نظرة عابرة من احد النوافذ، واذا هو وجهاً لوجه أمامه.

ارتبك جميل وهو يكتنفه خجل اطبق على انفاسه وارتّد خالي الوفاض وتراجع مسرعا، ثم دلف الى داره آسفاً على نفسه ولصنيعته التي سوف تجعله غير موثوق به من معارفه عند السماع بعمله غير المحبب.

كانت جدة أمير وهي امرأة عُرِفَ عنها الورع وهدوء الطباع ورقة الكلام، سمحة الطلة، تقرأ على جبينها سطوراً باهرة من الجلال تحسبها ملاكاً وكانت صديقة ودودة لجدته التي كانت عندهم حينها بالصدفة. وبدا امير يصرخ وبعصبية ويقول: (جميل عمل كذا وكذا) وكان رد جدته

حالا وباستغراب: (ابني امير انت مخطئ.. جميل ولد عاقل، لم يعمل هذا وأنّبته بشدة)..

لما رجع جميل الى البيت سردت جدته له الموقف كاملا، وهي نفسها لم تصدق ما حدث مما زاد تأثره جدا وتأسف على هذا التصرف، وكيف هو في اعتبار الناس، ويتصرف بسلوك مشين.

اعتّد (جميل) بنفسه ووثق بها، وعقد صلحاً مع حاله ان لا يلجأ الى هذه الامور الصغيرة، ولم يمد يده الى ما يملكه الأخرون في المستقبل قط.. نعم انه درس تعلمه الحياة هنيئا لمن اعتبر.

(2)

الموروثات الريفية

طبعت في ذهنه كثير من العادات القبلية ومنها (ثقافة العيب) فهذا يجوز، ولايجوز وهذا مقبول، وغير مقبول ناهيك بالخطوط الحمراء التي لاتخترق او التفكير بها بمعزول عن الموروث الريفي وكأنها حقنت في وريد نفسه للابد وأثرت في اشكال حياته حتى لو كان الموقف لايستحق ذلك..وكانما اصبحت هي مصدر القوانين التي تضبط المجتمع الريفي..واي مثلمة صغيرة ام كبيرة لتلك العادات يدرجونها تحت عنوان(العار) الذي وجب التخلص منه باي وسيلة حتى لو كان بأشد العدوانية والعنف. هذه ليست الصورة الحقيقية عن الريف فغالب سكانها يمتلكون طيبة القلب والكرم الاصيل والشّيَمِ العريقةِ التي تسود قريته التي يفتخر باي موقف الانتماء لها ولاينكر ان حصّة

الدين كانت محفزاً له في اتباع الفضيلة وهو يستمع الى محاضرات الواعظين وهم كثر في قريته ولعائلته نصيب في ذلك السياق فكان (شيخ عيسى) سنويا يجري عشرة مجالس حسينية في دارهم وكلها تدعو للحسنى برغم أَنه احيانا يكرر على مسامعهم رفض الأخر، لم يدركه في حينها حتى عاش في المجتمع الجامعي ليفجر في داخله رسالة محبة وسلام للجميع وهذا يتضامن مع الرسالة الاساسية لكل الاديان.

تأثر مرغما بإرهاصات النعرات العشائرية السائدة في مثل هذا المجتمع وتناله ما يحدث من جنونيات التشدق بالعزة والشجاعة من سليل الدم، وهم في واجهة اخرى عن قريته الحالية من الريف ولهم طقوسهم وعاداتهم التي تكتنفها الصرامة والتجهم واللامبالاة والقسوة في حل المشاكل، ولهم العذر في ذلك لان غياب القانون وانعدام التعليم خيمت عليهم خشونة الحياة. لقد عانى من اشاعة العداوات والخصام بين قبيلته التي نزحت عائلته منها وقبائل متاخمة لها، وهو في هذا الخضم يبحث عن مخرج

وملّ حتى طفح بالملل، ولولا طيبة القرية التي آوت عائلته وحصافة اهلها لكانت حياته تأخذ منحىً آخرَ غير مسوغ. مزح صديقٌ له بعد دهر من الزمن ليذكره:(لو كنت باقياً هناك لكنت لم تفارق البندقية).

حاول ان يحافظ على صداقته مع اقرانه في القرى المجاورة الذين لم يعاملوه الا بالود واغلبهم أناس مسالمون يتمتعون بمنحى وميل ديني طغى على بيئتهم فكانوا مصدر الهام له، ويبقى يذكر فضائلهم في أيّة مناسبة اقراراً بجميل معاملتهم وكرمهم وخاصة تعلمه في مدرستهم، التي انفردوا بها وبجهود الخيرين منهم دون القرى الاخرى.

الفصل الخامس

(1)

الفرصة الاولى

حقق (جميل) المرتبه الاولى على دفعته في الامتحان الوزاري للدراسة الابتدائية، وكان نصيبه ان يدخل الاقسام الداخلية في المرحلة المتوسطة، وكانت هدية السماء له وبدعاء والدته الذي لا ينقطع، ان تتكفل الدولة بالغذاء والسكن والحلاقة والحمّام التجاري، انها بركات دعاء ملاك الرحمة تلك وكان يجهله في حينها.

طلبة القسم الداخلي على تنافس شديد في المطالعة وكتمان جهدهم، ابتعادا عن حسد زملائهم وقد ذهبوا بعيدا في تربص أحدهما الاخر بتمثيله النوم، حتى يتأكد أن الاخرين خلدوا له، نهض واستدرك المطالعة بعيدا عن أعين الزملاء.

في يوم الجمعة تتوقف النشاطات المعتادة في القسم مما يضطر بعضهم الى السفر الى القرية أما سيرا على الأقدام بغضون زمن يستغرق خمس ساعات عندما يفرغ الجيب، وهو غالبا ما يكون خفيفا او يستقل راحلة او سيارة صنع هيكلها محليا كانت سائدة في ذلك الزمان وهي اداة التوصيل الرئيسة الى القرى لما لها من قدرة في التحمل من السير في الوحل والطرق الترابية، وكان العطل متوقعاً في اي وقت لوعورة الطريق وخاصة في الايام الممطرة.

كان شظف العيش متمردا، وله نصيب في حياة هؤلاء الطلبة ويسدل ظلاله الثقيلة على نفقاتهم. وقد اخذ نصيبه من ذلك، وفي احدى المرات قطع مع احد زملائه (نواف) مسافة (50) كم سيرا الى قريته رغم وعورة الطريق، والتنقل بين طرق ترابية وعبور الانهار والشطآن ومساحات مائية تسكنها حيوانات وحشية كي لا يقتحم مشاعر عائلته بطلب غير مستساغ منهم، ولا يثنيه كل ذلك عن حلمه الموعود، مستذكراً قوله عز وجل: (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)، الأعراف(199)

كان يعاني بصمت عدم حفظه السريع للمواد الدراسية ويغبط زملاءه حتى اهتدى الى مضاعفة الجهد ثلاث مرات أو اكثر مما يبذلونه كي يقترب من مستواهم، ولازمه هذا المنحى مجمل حياته، وأيقن ان الصبر والتجلد والايمان بالحلم، كالحبل المثلوث(ثلاثة خيوط متداخلة) لا يتهرأ سريعا، وان الظروف الصعبة تخلق المثابرة والاجتهاد وحسن الاحتمال، وتعطيك القدرة على تحملها وتعوضك عن ما تفتقده من مقدار الذكاء الذي ينقصك مقتديا بالمقولة: (قليلٌ من الذكاء كثيرٌ من الالحاح كثيرٌ من الاقدام يحقق طموحك) مما ترغم شيطنة الظروف لتتهادن معك الى حين يشاء الله في تحقيق طموحك.

(2)

ألعواطف المنكسرة

كان (جميل) صبيا نحيفا دقيق العظام العارية من الشحم واللحم، ولكنه كان معتدا بنفسه كونه اصبح في مرحلة جديدة، وقد يختلف عن اقرانه، ليس فقط بملبسه البسيط، بل بنظافة هندامه وبحِلمِه.

لوحظ عليه التحول السريع في سلوكه، من طفل مشاكس كثير الحركة، الى صبي خجول هادئ مشغول التفكير دائما.

بلغ سن النضج واخذ يبحث عن رجولته مبكراً، لأنه لم يجد شيئاً يلهو به مع اقرانه في قريته خلال العطلة الصيفية وهم قليلون حينذاك، واغلبهم لم ينالوا حظهم من التمتع بما يناسب اعمارهم، لانشغالهم بما يُعينْ عوائلهم على عُسر الحياة او أصلا لم يتوافر ما يجذب هواياتهم.

تغيرت الأحوال البيئية في تلك السنين في قريته واصبحت محاصيل الحنطة والشعير (بعد شحة المياه التي كانت تغمر الريف) هي المصدر الرئيس للغذاء لسكان الريف، وتزرع بدءاً من شهر تشرين كمحاصيل شتائية وتجنى بعد شهر نيسان، وتخلف المحاصيل بعد حصادها الجذور والجزء السفلي من سيقان النباتات، واحيانا يتعمد الفلاحون ترك جزء ملحوظ من هذه السيقان اذا كان المراد منه رعي الحيوانات وخاصة الاغنام.

يستهوي هذا المنظر مالكي الاغنام، وخاصة اصحاب الاعداد غير القليلة بعد عودتهم من البراري (المحاذية لمدينة الناصرية باتجاه مدينة البصرة) المعتمدة على الامطار والندى في نمو أنواع نادرة من الاعشاب بمساحات واسعة يلجأ إليها عند موسم الشتاء، مما يدفع بهم للبحث عن مراعٍ صيفية ويدفعون النقود بالاتفاق مع اصحاب الاراضي.

تعتمد القرية على النهر الذي تشح مياهه في الصيف، مما يجعل كل روافده تغور فيها المياه ويصبح النهر الذي يتمسك بمجرى نحيف للماء.

يتوافد كل الاهالي نساء ورجال لهذا المجرى مع حيواناتهم، خاصة في الوقت المحصور بين العصر والمغرب للارتواء وخزن ما يكفيهم منه.

استقرت عوائل بدوية وبنوا خيمهم المصنوعة من وبر الجمال قريبا من ديار قريته وبالذات داره. لاحظ أن هناك فتاة تكبره بسنوات قليلة تأتي الى هذا النهر في اوقات غير ما اعتاد الاهالي عليها.

الشابة تتسارع في المشي صوب النهر بطريقٍ سالك كغصنٍ يتمايل عند نسيمٍ صباحي في بداية الخريف باسقةً رشيقةً مليئةً بحيوية الشباب، تمزج بين نقاء وفصاحة البداوة، وترف ورقّة ودلال المدينة. ارتسم على محياها جمال سومري بحدة الانف المتوافق مع سحنة الوجه،

وسعة العينين المتمردتين، تتغنج بجمالها وتطلق العنان له بين فينةً واخرى.

اخذ اسمها كل النصيب من جمالها (عجيبة)، فتاة بدوية تجبر المارة على التمعن بالنظر لها مع ترنيمة ما شاء الله في خلقه.

تجرأ أن يسترق النظر لها بحياء في كل مرة ترد الى النهر، وصار المنظر يتكرر حتى سكنت روح كل منهما شاطئها.

ومرت الايام بين تحية المساء، وهمس الكلام، وعفوية الشباب، وتزاحم الاحلام، ورقَّ كل شيء حتى هديتها من الحلوى التي تخصه بها، عندما تتسوق من المدينة البعيدة عن القرية.

عاش عذوبة الحياة ومجد الظفر بحبيبته هدية السماء له، وبنشوة الزهو وهو يرتشف كالبلبل خَمْرَ العنب عند كل لقاء، ويرسم احلامه بخيوط الشمس سُمواً وتأملاً، وراح يقلد

مشاهير العشاق، ونسيَ أن كلهم ماتوا كمداً ولم يحققوا حلمهم المأمول.

بدأ يأفل قمر الحب مع انتهاء موسم الرعي، ليعلن للعاشقَين ان ينهيا عقد الوله بالتراضي لان حبيبته معتادة على الرحيل ومتهيأة له، ولكن جميل لم يعِ ما يحدث فحلمه كبير والتخلي عنه عسير، وكأن (المرأة توجد مرة واحدة في عمر الرجل) كما كتب (غسان كنفاني) في احدى رسائله الى (غاده السمان)، ورحيل الأحبة ليس ببعيد، واخذ يتعلق بحلمه مرة اخرى، ولكن اللقاء كان شحيحا وباردا من جانب عشيقته التي احست بندم كبير، رأفةً بحاله وتعلقه الصارم بها. ومرت الايام وجفَّ اللقاء، وانزاحت غيوم هول الحب، او هدأت بعد رحيل اهل محبوبته الى مكان أبعد.

تجربته العاطفية رغم قصر فترتها بقى فؤاده يحن الى تلك الايام وما يقول الشاعر (البحتري):

ولي فؤاد اذا طال العذاب به .... هام اشتياقا الى لقيا معذبه

فيما يقول الشاعر محمود درويش مستدركا(ان الحب كذبتنا الصادقة يأتي ويذهب كالبرق).

ويؤكد الدكتور مصطفى محمود(الحب موجود ولكنه نادر، وهو ثمرة توفيق الهي وليس ثمرة اجتهاد شخصي) وهذا ما سعت له الايام ان تهبط سيماء تلك الفتاة عند رحاب هذا الشاب من دون ان يسعى او يفكر بذلك.

فيما يؤكد الأديب جبران خليل جبران (ان الحب هو ابن التفاهم الروحي التي قد تحدث بلحظة واحدة) فكيف لشاب يحدث له مسلسل من تلك اللحظات يوميا، وبتوافق روحي بينهما. كان يتمنى في تلك المدة ان يكون رجلا مستقلا ماديا حتى يحصل على حريته ليحظى بمحبوبته التي أحبها حباً افلاطونياً: (يحبون القمر وهو في مكانه).

وكما قال الشاعر العباس بن الاحنف

أستغفر الله إلا من مودتكم .. فإنها حسناتي يوم ألقاهُ

فإن زعمتِ أن الحب معصيةٌ.. فالحب أحسن ما يُعصى به اللهُ

اخذ يفكر كيف يحوّل فشله في تجربته العاطفية إلى نجاح يسعد خاطره ويخرج من شرنقة الوحدة التي القت بظلالها عليه في تلك الايام الخوالي حتى أُعلن حلول الموسم الدراسي التالي ليتابع دراسته الثانوية..

(3)

اضواء المدينة

حَلَمَ كثيرا ان يرى المدينة التي انبهر بها بجنون، التي تختلف طولا وعرضا عن قريته التي تتكون من مجموعة صغيرة من البيوت العشوائية.

كانت المدينة لها نصيب من اسمها (الشطرة) التي تغفو بخجل على ضفتي نهر كرافد من نهر الغراف النابع من نهر دجلة عند مدينة الكوت.

اضاف هذا الرافد الذي يشطر هذه المدينة جمالا وبهاء، خاصة عندما تزيح كلحة الظلام المعتاد عليه في قريته بقناديل ضوئية ترمي بأشعتها مع اهتزاز سطح مياه النهر،

عندما يفقد وقاره ليثير في نفوس ناظريه متعة المشاهدة والتأمل.

تمتد المدينة طولا متاخمة لشاطئ من الجانبين يكون احدها وهو الصوب الغربي، مزدحماً وتشغله المحلات التجارية وتسكنه العوائل القديمة باختلاف امشاجها ومناحلها.

اعطى هذا التنوع وتقبلها للعيش بالتراضي سمة نادرة استلهمها الشباب ليمزجوا كل العادات والافكار، لتعطي مدينتهم طابع التفرد والتميز على مستوى التطلع والثقافة التي كانت متعثرة في تلك السنين، ناهيك بأَنّ المدينة ذات وضع اقتصادي متقدمة على اقرانها بسبب الكثافة السكانية من العدد الكبير من القرى ذات الانتاج الزراعي الوفير.

اما الصوب الشرقي، الذي تكتنفه البيوتات المتواضعة الا ما ندر ويمتد شاطئه بمسافة كيلومترين ويحجز المباني عنه طريق معبد جميل تنازعه على مجرى ماء نهر

شجيرات خضر ليست متماسكة ولكنها تتحدى صرامة الصيف وبخل الشتاء.

كان يرى في المنظر حلمه الذي بدأ يزاحمه عنوة وكان يسافر معه الى بقاع الارض مرة الى (امريكا) حين يسمع من اخواله الذين يسكنون هذا الجانب ان ابن خالته يكمل الدراسة فيها، او الاخر في (مصر) يدرس الطب(سمت والدته اخوه الاصغر (عبدالحسين) على اسمه قد يحظى بما ناله)، وكان وراء تلك المباهاة والدتهم(كلثوم)، الإنسانة الجميلة المتزنة التي تلحق الليل بالنهار في خياطة وتجهيز العرائس اللواتي اغلبهن من سكنة القرى، واحيانا يتواضع ليكون معلماً اعجابا بمعلمه(هاشم السهلاني) والذي كان في ذلك الوقت يعد من الطبقة الميسورة، وقد يأخذه فضوله لان يصبح ذا اهتمام. وهذه الافكار وغيرها تتكرر عند زيارته لأخواله في المدينة الذين منحوه عطفاً لا حدود له رغم قصر ايديهم لكونه الولد البكر لابنتهم البكر.

الآن هو يقضي معظم اوقاته بالمدينة الحلم، لتنقذه من ارهاصات وبخل القرية على الرغم من انها موطن ولادته، ولكن موطن المرء المكان الذي تنتهي فيه كل محاولاته للهرب كما يقول (نجيب محفوظ).

الفصل االسادس

(1)

النجاح... فرح لم يكتمل

في صباح يوم تموزي(عام 1969)، تجمهر (جميل) مع عدد غير قليل من زملائه امام شباك احد غرف ادارة متوسطة سومر (الكائنة في مدينة الناصرية) التي درس فيها بعد الغاء الأقسام الداخلية في الاقضية واختصارها في مركز المحافظة، واخذ معاون المدير يذيع اسماء الطلبة الذين اشتركوا في الامتحان الوزاري للدراسة المتوسطة، وكانت افكاره تتأرجح بين ان يكون ضمن ركب الفائزين او تخذله مادة اللغة الانكليزية التي ارتبك في الاجابة عندها.

وكان صوت المعاون يتذبذب بين هرج ومرج الطلبة واكتظاظهم حول الشباك تمنعه من متابعة الاصغاء الى الأسماء، الى ان اقترب منه صديق ودود احتضنه بشدة ووجهه متهلل فبادله بنفس المشاعر حتى لا يُفسِد عليه

فرحته، وترددت على مسامعه كلمة (مبارك) فرّدَ عليه: (هذا استحقاقك يا صديقي).. فبادله صديقه: (وانت تستحقه بجدارة، لقد اذاعوا اسمك قبل اسمي).

تشبث بوقار المتيقن، واستفسر منه: (كيف نحصل على النتيجة الرسمية)؟. فأجاب صديقه: (احتمال غدا).

استقبل هذا الخبر بعدم الراحة ليتعذر عليه الانتظار الى غدٍ، لقصر اليد ومحدودية ما في الجيب، فاضطر الى العودة الى قريته مستقلا احدى المركبات المتوافرة بعد ان قطع (40كم) الى مدينة الغراف ومنها (10كم) الى قريته، وكلها طرق ترابية واسعار النقل مكلفة في ذلك الوقت، ولكنه يحمل في جنباته بشارة نجاحه الى اهله، غير انه مستدرك تماما لم يشاركه احد لا من قريب ولا من بعيد فرحته، واستحقاق هذا الجهد في قريته التي لم يكن معتاداً فيها هذا المستوى، غير انه في المدينة، يُشار بالبنان الى من ينال هذه الدرجة.

كانت وثيقة تخرج الدراسة المتوسطة في تلك السنوات العجاف، تجعلك تقف امام واجهة ذات عدة مسالك، فكان الاتجاه الزراعي الذي استمال الكثير من زملائه لما فيه من سكن وفترة الدراسة قصيرة ثلاث سنوات، ومنها ينال المتخرج عنوان كادر زراعي وفرصته في التعيين واسعة.

لم يرُقْ له هذا التوجه، وتحمّلَ من والده تأنيباً صارماً، او يأخذ منحىً عسكرياً ليلتحق بمركز تدريب مهني اغلق في وجهه تماما، برغم رغبة والده الملحة التي اخذت منه وقتا وانفاقا ولكن قدّرَ الله وما شاء فعل.

بقى يحمل حلمه المترف ويغازله كل يوم، بل كل ساعة، يحيك من خيوط شمس القرية التي توقظه على امل ان يجد مخرجا لمحنته التي لم يشاطره فيها احد غير الله وما يكتنزه من مطالعاته المتواضعة عن اقدار الخالدين، وسفر الصابرين، وفرص المؤمنين.

توافر له نزرٌ من النقود، بعد ان باعت والدته عددا من البيض، كانت كافية لسفره للاطلاع على نتيجته دون علم

والده، وفعلا استلمها ارقاما وكان متأخراً نوعا ما، ولابد من ان يختار التوجه لكي يدرج عنوان وثيقة تخرجه وحسم الامر الى الدراسة الاعدادية التي كانت حلمه، واخبره مدير التسجيل مراجعة الاعدادية المعنية فقد ترسل الوثيقة بالبريد حسب التعليمات.

بدأ العام الدراسي وراجع اعدادبة الشطرة بشغف، ولكنه صُدِمَ من معاون المدير بأن وثيقته لم تصل اليهم، مما أثار حنقه بسبب ضيق اليد، لان السفر الى مدرسته المتوسطة السابقة مُكْلفْ ضمن ملكيته حينها. غادر الى اهله في القرية، وانتظر حتى تتوفر اجور السفر ثم توجه الى مدرسته ليستفسر عن مصير وثيقته وهو مهموم ويقلب الامور عسى ان يهتدي الى شيء مرضٍ، وقابل مسؤول الوثائق وسمع نفس الرد الاول، ان وثيقته ارسلت الى الاعدادية.

وهو في اثناء خروجه من المدرسة، فَكّرَ ان يستفسر عنها في المديرية العامة للتربية، لكنه لم يجد نفعا وقفل عائدا الى قريته.

تمر الايام سريعا وهو في حيرة، بين غايته القبول في الاعدادية ولم يقف الى جانبه او يشاركه في محنته أحد، وبين الواقع الان وهو يجهل مصير وثيقة تخرجه ناهيك بزعل والده بسبب انه لم يحقق رغبته في الالتحاق بإعدادية الزراعة بعد الياس من الانضمام الى احدى مؤسسات الجيش.

لم يخفف القهر الذي انتابه غير الرقّة والعطف، وهذا لم يلمسه من الاخرين وبدأ الياس المُر يستحوذ على تفكيره، وبعد ايام دبّرَ حاله وسافر الى الاعدادية في مدينة الشطرة وكان متأخرا واستفسر من نفس المعاون للمدرسة وبتردد خشية الرد المقيت الذي اعتاد عليه، وتمعن النظر في وجهه وتذكره وهو في المتوسطة الذي اعتاد على هذا الاسم ان يكون مميزا في مادة التاريخ، ثم تذكر اسم جده

المتفرد الذي يشترك به مع ابن عمه، وكانا في تنافس على تحضير الدرس اليومي لمادة التاريخ، ثم تنهد وهزَّ برأسه، ومدَّ يدهِ الى جرارة مكتبه ليخرج منه ظرفا اسمرَ وفتحه، ويفاجئه انها وثيقة تخرجه، وينظر إليه بابتسامة عريضة ممزوجة باعتذار مبطن شجعته ان يطلب منه ان يلتحق بالدراسة فورا، وصدمه بجوابه الذي وقع على راسه كالصاعقة: (ان الوقت متأخر) ولم يكترث ماعاناه تلك المدة وحاول معه مرة اخرى ولكنه أصرَّ، متعذرا لانهم في شهر تشرين الثاني وطلب منه مبلغاً مالياً بدل ادراج اسمه ضمن الطلبة المقبولين في الاعدادية، ويغيظه مرة اخرى باعتباره راسباً بالغيابات لتلك السنه.

قد يبدو انه قد انهار كل شيء امامه وبهتت صورة حلمة كطالب اعدادية وحرمانه من الدراسة ولكنه لم يربكه هذا الاندهاش، كل شيء يمكن ان يقع للإنسان من دون سابق انذار.

(2)

صبر طائر البطريق

بسبب عدم اكتراث المعنيين وارتباك سياق نقل الوثائق الرسمية عن طريق البريد، وعدم اخذ اجراءات الاستلام والتسليم للكتب الرسمية للحيلولة دون فقدانها، او على الاقل ضمان سرعة وصولها؛ فكم حالة مثل حالته أصابت بمقتل من الاخرين ليس لهم ذنب بها غير اللامبالاة وعدم اتباع نظم ادارية فاعلة تضمن حقوق الاخرين وصيانتها، حفرت شرخا مؤلما في ذاكرته؟!.

ابتعد بقصد عن اجواء المدينة حزينا بائسا تحرق اللوعة صدره الضعيف لكي لا يرى اقرانه وهم يحملون كتبهم بوقار، وكأنهم ادركوا بثبات مسك اطراف جلباب المستقبل وكل منهم رسم خطوط مسيرته الا هو.

عاد الى قريته منكسراً، وخواء مروع في ذهنه بعد ان كان يتوهج منه الامل والتحدي والتفاؤل واخذ يسترجع

ذكرياته وهو جالس او ماشٍ في كل ايام الصيف القائض، وليالي الشتاء القارص التي مرت عليه طيلة تلك السنين العجاف، وتحملها بصبر صياد، وحلم فلاح؛ من عض انياب الفقر، ولسعات البعوض المؤذية، وقساوة الحياة، واخذ يعتذر من بعض اشجار النخيل التي جادت عليه بالفيء في ظلالها، وَلِما سبّبَ لها من ضجيج لصوته العالي عند المطالعة في الامتحان الوزاري للمرحلة المتوسطة، وموت الاعشاب القريبة منها من احتكاك اقدامه ذهابا وايابا لها، وكانت تلك الاشجار بمثابة صومعة مذهبه طول اليوم، الى حد اثار عطف صاحب البستان لحالته وتحولت كل الآمال الى اوهام.. ولكن قول يوسف السباعي (حمدا لله على اوهامنا انها تمنحنا قليلاً من الامل) قد يجد له في ذلك بقية عزاء لمحنته.

أحس الشاب ان الاشياء التي احبها بدت تنزلق عن مخيلته، واصبحت الحياة عنده بمثابة فقدان متواصل كثمر عرجون النخيل نهاية موسمه، ومرت الايام وهو قابع في عزلته القاسية واضطربت عنده كل الافكار السلبية،

وتزاحمت في باب مخيلته صور اليأس، الا ان رحمة الله لا تسدل أستارها.

ألتمع في خاطره شعور خفيّ، مصدره ان ينفض أدران حاضره ويهرب الى موطن حلمه، ففي سنوات القحط يكون التشبث بصبر طائر البطريق[10] اجدى من أن يفقد البصيرة تماما.

أخذ بمشورة والده ان يذهب إلى المدينة، بوصية من احد اصدقائه ان يشارك باحد النشاطات الاجتماعية، فوجدها فرصة ذهبية ان يلتحق بمجتمع المدينة، واعتاد على هذا النمط ما يقارب من الستة اشهر بصورة متقطعة، عمقتْ علاقاته مع بعض الاصدقاء، الشيء المهم بها اخذ يفكر بجدية كيفية استمالة الاخرين في تكملة دراسته الثانوية

(10) تبدا طيور البطريق برحلة 100كم نحو الارض الموعوده لتضع الاناث بيضها في بيئة قارصة وتغادر للصيد وتجتمع ذكور البطريق في مجموعات كبيرة بعد ان يحمل كلّ منها بيضة باقدامه ويجلس فوقها ويغطيها حتى لاتلامس الثلج واذا اراد ان ينتقل الى مكان اخر فانه يمشي والبيضة فوق قدميه...يبقى على هذه الحال مدة طويلة تقترب من اربعة أَشهر بدون غذاء حتى يفقس البيض انها تضحية نادرة عنوانها صبرها المميز.

والتخطيط لها، وفي مقدمتهم والده واخواله الذين ابدوا رضاهم باحتضانه، بمثابة حَسَنة يتقربون بها الى الله.

لملم حاجاته بعد ان تأكد أنه لا مناص من وجهته، وسافر الى المدينة عندما بدأ العام الدراسي الجديد ولكن بداية رحلة اكتنفها الغموض، فضلاً عن ظروف جائرة.

لم يملك شيئاً غير حلمه وصمته، وينتظر من يهديه الى سبيل امله المقترن بقبول المجهول مصدره ابتعاداً عن ضيق الأُفق والتراضي مع النفس.

قد تتسابق الأيام.. بل تتنافس بين بيضها الصالحات القانتات المُكرَمات، كأنما لم تكتنف عتمة في حناياها، وبين لياليها المقفرات الجادبات الحابسات، لم يتنفس فيها نوراً ولم يَلُحْ فيها فجر. قد يلد الإنسان وتأخذه الاقدار، وتنحو به بين صباح مشرق يطمئن له ثم تدركه سحابة قاتمة قد تفقد رؤيته إلى حين يبصره طالع.

نعم تجاذبت الأيام بين مدِّها وجزرها، أيام تفقد فيها رؤية الأمل المشغوف وانقطاع كل السبل إلا الصلة المتينة بالله،

صلة لم تخمد ما دام دعاء أُمه الصامت لم يسكن ولم يهدأ..

نادته نداءً نقياً، نقاء سماء ريفه، حين ذاك يغازله رجاء والده الغريزي، منها تجحفل مع نفسه وشدّدَ ازره بابتهالات امه غير المسموعة والتي طوقت فيها رقبته، وسار في طريق ابتدأ من قريته إلى مجهول، لم يكترث ما يحدث له.. دليله ثقته بربه ونظرات امه تتابعه على مضض، لم تحسن التعبير عمّا يجول في خاطرها.. كان منكسرا قلقا قد لا تمنحه الايام ان يجبر خاطرها او تفتخر به على الاقل بان يكونَ لها ولدٌ لينعتوها به (أم جميل).

التحق بالدراسة الثانوية وهو يختزن في صدره ألم الفوارق الطبقية التي كانت حاضرة في الثانوية من خلال زملائه وهي واضحة جدا على محياهم ولبسهم وسلوكهم وحتى تعامل بعض المدرسين معهم، ولكن عزاءه هو وجود عدد غير قليل مثل حاله، غير انهم يملكون سكناً واهلاً يتابعونهم.

كظم كل ذلك واستعان بهُدى الله، واجبر نفسه على ان يتكابر على الشقاء وعسر اليد، وجعل هدفه كأنه محور الكون ما دام صدره مليئاً بالحياة الجديرة ان تخلق منه انساناً يجعله موضعاً لاهتمام الاخرين.

البحث عن الاهتمام ولفت انتباه الاخرين له، اعتنقها كرسالة انسانية واعتبرها ضمن منهاجه للحياة.

قد لا يفهم الناس ما تختلج به نفسك وانت مصمم على اختيارك الذي قطعت به مئات الاميال تفكيرا، وقد يبقى شعورا يتجول في فؤادك صباحا ومساءً، ولم يسمعوا أنينه، وهذا ليس ذنبهم بل هي سجية الحياة. قد ينتابك احساس بان تكون على الاقل من افضل من تعرفهم، وفعلا ازداد يقيناً بانه افضل من غيره. هنا الافضلية في الوعي والطموح وليس الاستكانة والثراء. نعم هناك قتامة في طريقه واذا استسلم لها برغم وجودها قد يقع في شرك الخواء الذي يشل تفكيره وهو بحاجه إليه في هذه المرحلة اكثر من غيرها. ونلجأ احيانا لعمل شيء مهم لم تمتد اليه

وشائج الحب بل يفرضه عليك رضا الضمير واهتمام الاخرين، وقد تصيب منه خيرا بعد حين عندما تعلِم نفسك على الجَلَد والمكابرة. وقد انصفه الأديب جبران خليل جبران في هذه المرحلة عندما قال: (لن يهزم شخص يؤمن بنفسه) ويستبسل مكافحا قدره الذي استقبله بهدوء قد تشوبه وخزات نكد الايام، ولكنه قرر ان يضع اولى لبنات حياته الجديدة غير مكترث ما تحدث له الليالي مستعينا بقول الامام الشافعي:

دع الايام تفعل ما تشاء .. وطِبْ نفساً اذا حكم القضاء.

الفصل السابع

(1)

حُسنى الأقربين

اهتم بمن حوله واستهوته المدينة وعمرانها واخترق طرقاتها ضمن محدودية تفكير الشاب الريفي، واخذ يبهره كل شيء ويغبط الناس في ما رزقهم الله، واخذ هذا التفكير يدفعه للمنافسة غير العادلة في ذاته وقد نعذره لطموحه او الحرمان الذي يسلبه حلمه عندما يقارن نفسه بغيره من اقرانه.

ولأنه لم تمنحه الحياة فرصة المقارنة على مدى عام او اكثر، ولم يجد فوارق واضحة نخضعها لهذا المبدأ، بل جعل حلماً لحياته يبدا بخطوة مرتجفة، عسى ان يتوافق معها على المدى البعيد.

قد يرزقك الله في أي مرحلة من حياتك بخيرين يُهديهم لك ليضيفوا أو يكملوا ما لديك.

بلى.. تكون اجدى عندما تكون بينهم علاقة الدم. وهذا ليس عابرا بل ثبتوا بإصرار في نهج حياته. أعطوا ولم ينتظروا رد الجميل، وأغاروا في أعماق وَجْده ليظهروا نعيم مكنوناته.. يعيش معهم ويبقى، مع بقاء وهج الود والمحبة بينهم من دون مراجعة.

منهم تعلم الوفاء ليكون نهجاً لكي يفيد من يحتاج إليها. وآخر يكتشف بما لم يعرفه عن نفسه.. يسعدون بنجاحه وهم عنوانه. كل منهم خزين لا ينضب من مصاهرة السنين. أخذوا منها ما غلا وسما، ليكرموا به من حولهم دون منة.

أعانوه بسجيتهم دون تكلف، وايقظوا في نفسه ملكات الألفة والحسنى... ها هم كنوز دنياه كانوا كل منهم الضرع الذي ارتشف منه لبن النجاح، وصيرورة العطاء، إنهم اخواله اشقاء والدته.

ابتدأ الفصل الدراسي وهو متردد ان يسكن عند بيت خاله الاصغر(محمد) وتشجّع كون خاله الاكبر(صاحب) جاراً

لبيت خاله الاصغر، وكان بيته اوسع نوعاً ما مما اتاح له ان يأخذ ركناً منه صغيراً كمبيت غير دائمي.

كبير اخواله(صاحب) يمتهن سلك الشرطة برتبة متواضعة، ارهقته الحياة وعانى بحياته وعاش يتيما فقيرا وجاهد ان يصبح أباً لعائلة تعيش بكفاف، تسنده زوجة رائعة صابرة على وجع الايام وقساوتها، راعية لبيتها طوال غيابه عن البيت التي تفرضها عليه مهنته، لم يجد منها (جميل) غير الاستحسان ولم تحسسه بثقل تواجده عندهم.

أما خاله الاصغر(محمد) فكان رجلاً ملاكاً مؤمنا لم تدنسه اهوال الدنيا وبؤسها، بسيط التفكير، يحبه كثيرا كونه ابن اخته الكبرى، له الفضل الكبير برعايته وكان هدية الله له، ورغم ظروفه القاهرة ولكنه كان يصر ان يحقق جميل حلمه.

اكمل سنته بنجاح وهو لم يكن متأكدا من أن تبقى تلك الظروف على حالها للعام القادم، كان يصغي بعمق هذا الشاب عندما يتحدثون عن أولاد خالتهم الذين منحتهم

الايام فرصة الدراسة خارج البلاد، أحدهم استقر في أميركا يدرس علوم الفيزياء، والآخر في مصر يروم امتهان الطب، وكان هذا الاتجاه نادراً جدا، لم ينِلْهُ الا أبناء الأثرياء، واصبحوا موضع فخر واعتزاز اهاليهم وذويهم واقاربهم، ومنهم اخواله رغم ان عائلتيهما لم تحسب على ذوي المال او الثراء وانما أُمهم امرأة عصامية شديدة الذكاء، امتهنت الخياطة كما ذكرت سابقا، واكتسبت من مهنتها مالاً يكفي لمتابعة دراسة اولادها، رغم غلاء المعيشة.

اختمرت فكرة الدراسة خارج البلاد عنده، واستهواه كيل المديح لهم، من معارفهم واثارة الانتباه والتمسك بحلم حققه أُناس تعرفهم وارد جدا، وتذكر غبطة الأديب العملاق (طه حسين) في (رواية الأيام) بأخيه الأزهري عندما يعود من القاهرة الى قريته عند بداية كل عطلة بالترحيب والتهليل من الأهل والمعارف، وهو قابع تحت أوهام الكتاتيب.

(2)

أفكار مبعثرة بين رحاب المدينة ورمضاء القرية

ينهي عطلته في الريف، محتسبا ان يخفف عن أخواله ما يثقلهم على الأقل فترة العطلة وانشغل بقراءة ما يستعيره من معارفه من قصص وروايات واي كتاب بدون هدف، فقط لقتل الفراغ عند القيلولة، لان باقي وقته ينهض مبكرا، اما لجني محصول الصيف، وكان محصول القمح أساسياً في زراعتهم او مساعدة عمه كبير السن في شؤون اخرى وهو ليس لديه ابناء يساعدونه.

كان عمه رجلاً ذا شخصية بسيطة متواضعة، لم يرَ المدينة تقريبا طيلة حياته، لكونه مطلوبا للقضاء بتهمة قتل من زمن بعيد، فرضت عليه ان يتحمل قساوة الحياة، لم يفهم معنى المدرسة والتعليم، ولم تخطر على باله.

لمّا وُلِدَ جميل اخذ (حبله السري) ودفنه عمه عند ارض زراعية تأملا منه ان يصبح فلاحاً ماهراً لن يشق له غبار(وهي من العادات الموروثة)، ولكنه عاش بنحو غير ذلك، لم يحب الفلاحة، ولا حياة الريف القاسية وقياساً بأخيه الاصغر(جليل) الذي دُفن حبله السري في احد صفوف المدرسه التي تركها مبكرا.

بقى يعيش رديف عمه عند تواجده في الريف ايام العطلة الصيفية، واصبح مصدر الهامه الوحيد رغماً عنه، فكان يحدثه عن الماضي واحداثه المثيرة التي تعذر ان يسمعها من والده، فقد كان صعب المراس لم يتحسس منه ما تطلبه الأبوة لا كلاما ولا سلوكا، واكثر ما يغيظه هو الجفاء بينه وبين والدته وعلاقتهما غير الودية نتيجة الاختلاف في الطباع، فوالده صاخب مجلجل لم يكترث لهم، وأمه هادئة وديعة لم يسمعها ترد ببنت شفة عليه لتسلطه فكان رجلا مزاجيا يعتد بنفسه بغير موضعها، ولكن للإنصاف لم يقصر في تلبية الحاجات المعيشية لعائلته وبجهد واضح، مع ميزة حسنه انه صاحب علاقات اجتماعية مشهودة

نتيجة اختلاطه بمجتمع المعلمين، وهُمْ علّيْة المجتمع ثقافةً، وارتبط مع بعضهم بصداقة ود حميمة امتدت حتى وفاته، وكانوا سببا له ان يُعيّن حارسا في المدرسة الابتدائية عند استحداثها، وتأثر بأفكارهم وبأسلوب حياتهم، وكانت لديه رغبة مدنية تأثر بها متأخرا، واستغل جميل هذا المنحى لدى والده المتقلب المزاج بين سطوة الريف وليونة المدينة، واصبح جلُّ تفكيره في تلك الحقبه محاولاً ان يكسب رضاه..

(3)

القلوب الرحيمة

تردد في اختيار نوع الدراسة عند بداية العام الدراسي التالي في المرحلة الخامسة، واستسلم لرغبة اصدقائه الذين اختاروا الاتجاه الأدبي..

أحس بضيق شديد في أول محاضرة عنده، وتذكر انه لم يحفظ سريعا واطبقت على نفسه عدم وفائه لمادة الكيمياء المحببة له، وما انتهت المحاضرة حتى يجد نفسه في عالمه وحلمه وجهاً لوجه مع المعادلات والقوانين العلمية سهلة الفهم والتحليل في الفرع العلمي. في تلك السنه فقد قلبين رحيمين؛ جدته لأبيه في القرية التي اعتاد منها كل صباح ان تميزه برغيف الخبز الحار ومقدار من السَمِن (الحُر)[11] التي تنثرها بحبات السكر..

(11) الدهن الحر وهو نفسه السمن الحيواني او السمن البلدي فهو دهن مستخرج من حليب الغنم أو البقر وغالبا من البقر ويستخدم في المطبخ في إعداد الأطعمة، .

كانت ودودةً معه وتعدّه ابنها، الا انها قصيرة اليد في المصروف الذي يحتاج إليه، وتكون محقة لأنها لم تدرك ما يصبو له وما يأمله.

أما جدته لأُمه في المدينة التي كانت بصيرة، وكان لا ينسى تحسسها له بيديها الكريمتين مع ذكر آياتٍ قرآنية عندما تعلم انه يعاني من ضجر وبؤس الحياة، حتى أنها كانت تحب امه بلا حدود، وجادت عليه بحنيّة تحسسه بكيانه، وغالبا ما تُسمعه دعاءً يهدئ من خاطره وفي تشييعه لجثمانها كاد فؤاده ينتزع من جسده ليعانق قلبها الكبير ويأبى الوداع.

الفصل الثامن

(1)

السنة المشؤومة

تُعدُّ المرحلة النهائية للدراسة الاعدادية شبحَ خوفٍ وثقلٍ نفسيّ لا يمكن لأي طالب ان يغفله، وقد يتعرض بعضهم لاكتئاب طوال الفصل الدراسي، وينتابه قلق مستعر لما لأهمية هذه المرحلة التي تحدد اتجاهه ونمط حياته، وخشيته من ان لا يُحقّق مبتغاه.

ادرك أهمية المرحلة وبدأ يحمل طابع الاحلام كما الاخرين ان يلبي طموحه، فجمّد جميع نشاطاته وجعل نفسه بإنذارٍ دائم، وانتهج جدولاً دراسياً لمطالعة دروسه، وركّز على الدروس الادبية التي قد تغدر به، ومنها اللغة الانكليزية واللغة العربية، وجعل حصتهما اوقات الليل، وما يحمله من هدوء يجعله بمزاجٍ عالي التركيز، وفعلا كانت

مشاركته اليومية في درس اللغة الإنكليزية لافتاً لمدرس المادة وزملائه.

في تلك الظروف المشحونة يحتاج ان يسمع كلمة عطف او عبارة تشجيع من ذويه او معارفه يخفف عنه وطأة الظروف القاهرة، وما يفزعه اكثر عند زيارة احد من اصدقائه الميسورين مثل (طالب وصائب) ويلاحظ ما تهيّأ لهم من غرفة مطالعة أنيقة، ووفرة الغذاء وأشهى الفواكه، والوعود بأفضل الفرص.

في احدى زياراته لزميله الميسور (طالب) بعد مراجعة درس الفيزياء، وهو خارج منه، لمح سلة من البرتقال تكاد كل منها تجبر جوارها لتفك الزحام عنها وتنفث بعطرها على كل المساحة التي تخطاها، وهذا المنظر اعتاد ان يراه في الاسواق الخاصة للعوائل ذات الدخل المريح، والذي لم يألفه، وغفل زميله ان يقدم له احداها.

وتبقى مسامعه يشنفها دعاء والدته الدائم وهو متيقن مَن يقوي عزيمته ويدخل على قلبه السكينة والاطمئنان؛ تلك

الكلمات البريئة التي يدركها الله ويرعاها ويلقي بها ببركة حتى لو بعد حين.

اخذ بدنه يفقد الكثير من لحمه وبانت عظامه من خلف ثيابه، للجهد الذي يبذله وقلة الغذاء وتزاحم الافكار السلبية وخشية الفشل المحتمل.

أصرَّ وصمم ان يكمل مسيرته ويجعل عزيمته تبقيه على هدفه بقلب عامر بالإيمان، وهو يستدرك ان الايام تثبت ما ظننته اليوم مستحيلاً، فقد يرزقك الله بأفضل منه شرط ان تعصم ارادتك بصبر جميل، فبدونه يصيبك الشقاء المبرح.

كان كغيره من الشباب يحلم بحبيبة تهدئ من عواطفه، وتثير نياط رجولته التي هو في حاجةِ اليها لكي لا ينكسر، وتقوّي في نفسه شكيمة الاعتداد بها، فجاءت الاقدار ان ألقى شباكه في غير موضعها، فكانت شابه حالمة بحياة افضل، وفارس احلام ينقلها الى مجتمع رحب، وهذا من حقها ولكن لأدبها الجمّ اخذت تماشيه بودٍّ متيسر كونهما في نفس المرحلة فلم تقتحم مشاعره بتصرف قد يثير

هاجسه ويؤثر في دراسته. كل ذلك لم يمنعه ان يحلم او يتهندم بمجهوداته المتواضعة جدا.

في ذلك الوقت توثقت علاقته بزميله النبيل (جاسم عليوي، اصبح صيدلانياً معروفاً في مدينته) الذي ينافسه على الفقر، وهو من عائلة يتقاسمون قحط العيش بصبر المخبتين(المطمئنين الى الله)، وتحمل زميله مسؤولية نفسه، فكان يستغل عطلته الصيفية عاملا جدّياً موثوقا في مطعم للكباب، ومنَّ الله عليه بقابلية حفظ سريعة، وكان كريماً معه يعطيه اية معلومة من دون منّة، شديد الحرص على المراجعة اليومية، واخذ هو مجاراته بتوافق تام، لأنه وجد فيه ملاكاً اهداه الله ليكون عونا له، وكان رائداً في البحث عن مكان مناسب للمطالعة لهما، ومن قبيل الصدف اختار لهما بناية حديثة لإحدى المدارس وفيها مكان مناسب للدراسة من ظلٍّ وممرات تسهّل الحركة، وذات مرة اخبره زميله انهم ممنوعون من الدخول لتلك المدرسة، بسبب كتابة شعارات غير مُصرّح بها، فتنبه انه

كتب تاريخاً فقط غير قاصد به اي غرض، وكتمه على زميله خشية سخطه.

(2)

الصراع بين اليأس والطموح

أخذت الايام تسير بثقل مُمِل وهو يعاني من عدم الحفظ السريع، وهذا اجبره ان يعوضها بساعات الراحة المفروض أن يأخذها بدنهُ النحيف وكانت درجاته غير متوافقة مع ما يبذله من جهد، فقد قابل كل ما يتمتع به زملاؤه في مرحلته بصبر شديد.

جاء وقت التهيؤ للامتحانات النهائية، وقد حلق شعر رأسه حتى يكون لديه مُبرر لاعتزال الناس، فكان يخرج صباحا الى المزارع القريبة من المدينة، ليستغل كل دقيقة بمراجعة المواد التي تتطلب حفظاً، وهو يشدُّ من سيره صوب صومعته التي اختارها لتمنحه الهدوء حتى العودة عند الغروب ويكتفي بغذاء قليل بما تجود به خالته مما هو

متوفر. بدأت الامتحانات الوزارية، واستُهِلت بدرس اللغة العربية ثم اللغة الانكليزية، وكان على وئام مع نفسه

لكليهما، معتمدا على مادة الرياضيات التي تهيأ لها تماما، مستندا على عدد من المصادر الخارجية المعروفة والمتابعة اليومية، وتواجه معها وجهاً لوجه في صباح مشؤوم واول ما وقعت عينه على السؤال الاول وكانت النظرية الثانية شاخصة امامه وبدا يتمتم مع نفسه يا الهي.. ماذا حدث؟..

هي في مستهل كتاب الهندسة المقرر، حاول ان يسترجع ذاكرته التي امتنعت نهائيا للاستجابة وأصابه ارتباك شديد، وعصفت في ذهنه رياح الخيبة، وكان اعتماده على هذا النوع من الاسئلة وحفظ اصعب النظريات التي كان تعدادها ستة وثلاثين نظرية، واخيرا تفاجأ بهذه النظرية البسيطة التي تعتمد على الحفظ المطلق، فكانت من النوع السهل اليسير، واخذت منه وقتاً غير قليل لفك رموزها، حتى تحول للأسئلة الاخرى بيأس قاتل وتبدد عنه كل ما

كان يحلم به ولم تسعفه ذاكرته، فغادر قاعة الامتحان منكسرا مذهولا، لم يجد من يعزيه او يطيب خاطره، وانتابه احساس عميق من الحزن، لفقدانه كل ما كان يحلم به، واخذت عواصف الخيبة تتأرجح به من دون هدى لم يستطع مجاراتها.

كَمَدَ ألمه بصمت واصطحب كتاب الاحياء للامتحان التالي، واتجه الى أحدى المزارع المعتاد المطالعة فيها، واخذ يقلب الاوراق ولم يستطع التركيز وحاول مرات ولم يسعفه الحظ، وأحسَّ بضيق شديد أطبق على انفاسه، وزوغان أثقل نظره، فأغلق كتابه واردف عائدا مثقلا بعاطفة ياس قهارة لم يعلم بها غير الله...

التقى صباح اليوم التالي بابن عمه من دون موعد مُسبق، كان عسكريا يروم العودة الى ثكنته في ديالى مرورا بمدينة بغداد، فرام السفر لها بدون هدى، غير أنهُ يريد ان يبدد ما تختلج من لجّة تعصر صدره الذي بدا لا يحتمل ما حدث، وقد شجعه هو وجود خالته هناك، وزوجها

الطيب، واخذ مقعده في مركبة كبيرة بجنب ابن عمه الذي كان دون رغبته ولكن استسلم لإرادته استعطافا وخشية تفسيره للأمر على غير ما ينوي.

في تلك اللحظة وفي الوقت المناسب، حضر خاله (صاحب) الذي كان رسول الرحمة الى المكان العام لنقل المسافرين، وأخذ يتطلع الى المكان المخصص لمدينة بغداد لأنه على دراية برغبة (جميل) لها، ولمحه من بعيد من خلال باب المركبة الذي كان مشرعاً لصعود المسافرين واتجه صوبه بتأني وروية، وعلامات التأسي والضجر توشح طالعه، وأدّى التحية بصوت هادئ كي لا يثير انتباه الاخرين ماعدا ابن عمه الذي بانت على وجهه علامات الرضا والارتياح لحضوره، وامسك بيده بلطف ممزوج بكلمات ودودة، انقاد لها بدون اي اعتراض وكأنما على موعد معه وينتظره بفارغ الصبر..

كان موقفا انسانيا مؤثرا تجسدت فيه الحسنى لتغذي رابطة الدم بينه وبين خاله الطيب ويبقى راسخا في ذهنه لا تمحوه السنين.

عاد وسكنت ثائرته قليلا ولكن لم تكتمل رغبته للمطالعة، وعَلِمَ أحد اقربائه من أُمه(المعلم صالح مهدي) بما حدث له عن طريق زوجته التي هي بمثابة خالته(حليمه، امراة ملائكية وقرة تحمل عاطفة القربى له وهي تتابع جهده طيلة العام، مما اثار شجونها مما حدث له، كانت دموعها تنافس يدها وهي تلملم كتبه من مكان خصصوه له في دارهم)، وكان زوجها معلما نبيهاً، واراد ان يخفف عنه معاناته فصحبهُ الى دار السينما لمشاهدة أحد الافلام الهندية التي كانت واسعة الانتشار تلك الفترة، وبطلها في أحد المواقف كان مطلوبا من قبل التحريات الفدرالية لجريمة حدثت، فراجع أحد الاطباء الجراحين وطلب منه ان يفقأ احدى عينيه أملاً في تغيير شكله فيصعب العثور عليه، أثار سخط الطبيب عليه؛ وردد (نحن نعالج ولا ندمر البشر).

كانت لقطة اضحكت أقاربه حينها ولكنه لم يأبه للموقف من شدة ما يعاني منه.

جاء اليوم التالي وهو متوجه للمركز الامتحاني، واذا بزميل اسمه (نجم سهيل، عُرف مهندساً لامعاً في محافظته فيما بعد) يناديه ويعلم بظروفه واخذ يراجع له المادة الدراسية بودٍّ وهو يصغي له، وكان الطريق متعاطفا معه، إذ أكمل ثلثي المادة قبل الوصول إلى المركز، وأنهى الامتحان غير آبه بشيء.

الامتحان التالي كانت مادته المحببة؛ الكيمياء، لم يَنَل نصيبه منها، فقد اخذت العتمة الخانقة منه مأخذاً وكادت تسدل ستارها عليه بجفاء مطبق، لم تمنحه الفرصة ليهدأ ويستقر، فليس له غير التأجيل وفعلا راجع مدير المركز، وكان رجلاً هادئا لماحا، استقبله بروح الأبوة، أجابه بخبرته الواسعة: (يا بُني التأجيل ليس في صالحك، لأن درجة الدور الثاني هي فقط درجة النجاح تحسب، فأفضل ان تمتحن وتجرب حظك)..

اقتنع وسُرَّ من كلامه اللطيف، وعاد الى الممر الذي يؤدي الى القاعة الامتحانية واستقر بمقعده لحظات وتم توزيع الاسئلة، وكلام الرجل الطيب قد اخذ مأخذه وفتح سريرته وجمع قواه وأعتمد على الاسئلة الفكرية، وانهى الامتحان بهدوء غير معتاد.

أدرك في اخر امتحان، وكان لمادة الفيزياء، أنه لابّدَّ ان يمنح لنفسه فرصة المراجعة ويرغم شجونه التي كانت على هدنة معها لمراجعة المادة وبتحايل مع الذاكرة التي تمتنع تُهادنه احيانا، وانهى امتحانه الاخير.

الفصل التاسع

(1)

الهروب الى بغداد

سافر الى بغداد بعد انتهاء الامتحانات ولم يكن يعلم مايفعل ولايقدر عاقبة قراره وكل مايمكن قوله إنه مسه الافتتان بهذه المدينة التي قرأ عنها في بطون الكتب ونعتوها بشتى الصفات الجميلة منها مدينة السلام او مدينة الرشيد او مقام الامام موسى الكاظم والحقيقة هو هروبه من الذكريات البائسة التي اطبقت على انفاسه ابان الامتحانات ووافق دون تردد ان يعمل في مقهى اقاربه،(الحاج كاظم حبيب) الذي اصبح بمثابة اباً ثانياً له وكان رجلا طيبا كريما معه يشجعه دائما مقتنعاً بشخصيته كشاب طموح.

كانت احدى اقربائه من أمه، تدرس في كلية الادارة التحقت توّاً بدراستها للعام الجديد، واطلت عليهم وهم في

استراحة الفندق الذي يملكه اقاربه الطيب، وسألوها عن النتائج، لأنه لم يجرؤ على الاستفسار خشية اللوم، واذا بها تقول: (ناجح وبدرجة جيد)..

تهللت اسارير وجهه مما سمعهُ منها وهم يهنؤونه، واقترحوا عليه ان يقدم على احد المعاهد لظروفه المعيشية، وأصر ان لا تخذله تلك الظروف، عسى الله ان يعوّضه ما خسره في تلك السنوات القاحلة.

عاد الى مدينته، وكان معدله يؤهله ان يكون ضمن احدى الكليات التي يرغب فيها، التي تكون مادة الكيمياء رائدها، وملأ استمارة الانتماء الى كلية العلوم وذهب الى مديرية التربية للتصديق والتقى بأحد زملائه، وأكّدَ له افتتاح كلية التربية هذا العام والتعيين مضمون حال التخرج. كان التعيين في تلك الحقبة شحيحاً جدا وخاصة من خريجي كلية العلوم برغم ندرتهم.

عاد مسرعاً وراجع مدير المدرسة الذي امتنع بإصرار عدم تغيير الاستمارة متعذرا بالجهد ليس غير ذلك، مما

اضطر ان يكلف أحد الخيرين ويوضح له مراده وتم تغيير الاستمارة الى كلية التربية.

ما زالت احلام استئناف الدراسة الجامعية في رأس قائمة احلامه التي يطمح لتحقيقها، غير انها ليست سهلة المنال لشاب انحدر من ريف كان تآلفه شاقا مع أجواء المدينة في دراسته للمرحلة الدراسية المتوسطة، برغم قربها من الريف، ولكن عسر الحال قد يحول دون تحقيق طموحه، والان هو اصبح طالبا جامعيا بعد ان اعلن قبوله في كلية التربية (جامعة بغداد) التي فتحت ابوابها هذا العام لأول مرة، وكانت تمنح دارسيها فرصة التعيين المضمون، والذي جاهد ان يكون أحد طلابها وملبياً لرغبته العتيدة ان يكون استحقاقه قسم الكيمياء.

الكيمياء علم غازله منذ أوّل ايام دراسته المتوسطة، بعد ان حصل على أعلى درجة في تلك المادة للشهر الاول في الصف الثاني متوسط، ومن ذلك الوقت عَرِفَ كيف يتعرف على بواطنه، رغم ان كثيراً من زملائه كانوا ينفرون

منه، ولكن الشي الجميل فيه انه يحتاج الى تأنٍّ وتحليل مفاصله باستدراك في جميع خطواته بالاستفسار (لماذا الشيطانية؟).. وهذا يكون متوافقا مع خصائص ملكية الفهم عنده.

أداة الاستفهام هنا عالية المناص ممن يريد ان يفهم مواد علم الكيمياء، لأنه علم يتحرى عن مكنونات المادة وكيفية تكوينها وتحولها الى مواد جديدة، وهذا أثار تفكير العلماء القدماء وأجادوا به وشغلوا الدنيا بتحضير مواد كيميائية قائمة الاستعمال الى وقتنا الحاضر، وقِبلتُهم العالم جابر ابن حيان الكوفي (سبعة قرون انجازاته في علم الكيمياء لم ينافسه أحد في العالم).

(2)

باص رقم (73)

التحق مع بقية زملائه بقسم الكيمياء(تشرين الاول 1973) الذي كان مرتبكا ومواده الدراسية غير واضحة مع قلة الملاك التدريسي لاستحداثه على عجل، غير ان رئيسه (د. معين) شخصية ذات خبرة يعلو ملامحه الهدوء واللين الممزوج بود مع الجميع.

تتكون مرحلته من شعبتين دُرِجَ اسمه في الشعبة (أ) وسرعان ما اندمج مع زملائه بعلاقات متفاوتة بين صديقٍ حميم وزميلٍ مُقرّب. لأول مرة يعيش اجواء الاختلاط وهي البيئة السائدة في الجامعات، وكان حذرا في تعامله قولا وتصرفاً.

كان قسمه يحمل تشكيلة من اجمل باقات الورد زاهية الالوان تُعبّر عن مناحل واطياف زملائه الذين شدوا رحالهم

من مختلف البقاع قاصدين مدينة السلام (بغداد) ليشكلوا لوحة متناسقة تنفث عطرها الذي يستنشقه الجميع لتطيب نفوسهم في ارض الوئام التي يذوب عندها كل ما يخدش صفاء العلاقات الانسانية، فكان (وعد وجون) من مدينة الموصل و(شعاع) من مدينة السماوة و(امل ونادية) من الناصرية و(بثينة وحسين) من البصرة و(تقي واحلام) من بابل و(محيي وفيصل ومحمد ومي وسناء) من بغداد و(انصاف) من دهوك و(جسام ودحام) من الرمادي و(نجم) من ميسان و(احمد وياسين) من الديوانية و(كريم وحمه) من السليمانية و(عبدالرحمن) من ديالى و(قادر) من اربيل و(خلف) من كركوك، وغيرهم .

كانت العلاقات بين الطلبة تؤطرها الجدية في الدراسة، وكلٌ من زملائه يحاول ان يتعايش مع الجو الجديد ويجاريهم ليكون مجتهدا في محاضراته، لكي يتسابق معهم على المقاعد الدراسية الامامية حتى لو تطلب الجري، وهذا يأتي من الحرص الشديد من قبلهم ليكون كل منهم قريباً من المُحاضِر ليستوعب ملاحظاته عن قرب.

كانوا حريصين وفي ذات الوقت ان لا تفسد تلك الممارسة او ما شاكلها الود بينهم فهم لا يبخلون بأية معلومة بينهم لمن يريدها.

بدأ زملاؤه يستأجرون اماكن سكناهم بمناطق مختلفة الا هو، لم يتمكن من مشاركتهم لضيق اليد، بل تصالح مع نفسه وسكن عند بيت (خالته) عند اطراف شمال مدينة بغداد في حي يدعى (الشعب).

كانت واسطة النقل الى مكان دراسته في (باب المعظم) مركبات اغلب بدنها من الخشب ذات المقاعد المتقابلة اضافة الى الباصات الحكومية الحمراء التي تحمل الرقم (73) التي كانت متعسفه بحقه لحد الضجر لتأخرها والتزاحم عليها خاصة عند اوقات بدء الدوام وانتهائه.

لم يكن الحي مُعبدا، خاصةً عند مقتربات بيت خالته مما جعله يُعاني من السير في ممرات موحلة للوصول الى الشارع العام عندما تكون السماء ممطرة، التي عاندته تلك السنة كما تبدو له مما جعلته تنتابه نوبات من الخجل عند

دخوله الجامعة بتلك الهيئة غير اللائقة خاصة عندما يعيق الوحل سيارة زوج خالته الصغيرة من نوع (الفولكس واكن) الذي كان منتسباً في احدى الثكنات العسكرية، مما يضطر إلى دفعها لتجتاز الوحل وهي تنثر بلؤم كتلاً صغيرة من الطين بكامل قياسه وهو يكظم ضجره حياءً، وبعدها يحاول جاهدا نفض آثاره المزعجة من ملابسه، وغالبا ما يتغابى في انجاز المهمة بشكل مرضي!.

استقبل الطلبة أول مُحاضِرة من أستاذة مادة الكيمياء العامة وهي(مدرّسة) بدون لقب علمي ولكنها ضليعة في التدريس، لذلك انتدبوها لتدريس تلك المادة، وحاول ان يكون متميزاً لأنه سعى الى شراء المصدر على مضض من طالبٍ في كلية العلوم، وحدث عبءٌ له لغلاء سعره، واقنع نفسه بما يعوضه من العلامات المريحة.

سارت الامور على غير ما توقعها وبدأ ينضب اندفاعه للدراسة وأحس ان قراره في السكن كان غير مناسب، ولكنه كان مضطرا لشحة المال، وخسر التعايش المثمر مع

زملائه في السكن من مراجعة الدروس، وتبادل المعرفة والمهارات ناهيك بأنها كانت امتداداً للحياة الجامعية اليومية التي يحتاج اليها ليتوافق مع الجميع، فمنهم من جادت عليه الحياة ثراءً ووسامةً والآخر جافته وأثقلت عليه وهذا النمط هم الاغلبية.

(3)

صاحب المكوى

حدسُه كان عند موضعه عندما وجد نفسه غير متوافق مع دراسته ولم يرتقِ الى مستوى زملائه فكان في حيرة من أمره. عند ذلك صدر امرٌ جامعي بقبولهم في الاقسام الداخلية يشمل السكن مع منحة شهرية مقدارها (عشرة دنانير). فعلا استلموا المنحة لذلك العام بتاريخ رجعي أسعفته من ثقل العوز ومنحته فرصة ان يعزز تواصله مع

زملائه خارج اجواء الجامعة، فقرر ان يؤجر غرفة مع زميل له يدعى(ياسين) يسكن فندق (رضوان) الذي يقع في شارع (المتنبي) وهو احد الفروع الجانبية من شارع (الرشيد) ذائع الصيت في العاصمة بغداد. وبدأ يتأخر في مكتبة الجامعة لمراجعة دروسه ليعوض ما فاته من محاضرات. وفي احد الايام كان جالسا في قاعة المطالعة بمكتبة الجامعة مكبا على متابعة محاضراته، لم يبقَ على الامتحانات النهائية الا أسبوعان، وكان الجهد قد نال منه كل منال. وبعدما ثَقُلَ جيبه و(تبغدد) بإرسال قميصه الى صاحب المكوى المقابل للفندق تذكر فجأة ان النقود التي ادّخرها كان مخبؤها في جيب القميص الذي سلمه للمكوى، فاستشاط غضباً وأسرع باتجاه محل المكوى، وابتأس كثيرا حين وجد المحل مغلقا. فكر مليا وحاول ان يستفسر من صاحب المحل المجاور؛ وكان محلاً للمواد الغذائية، تردد قليلا ولكن سيماء وجهه وطلعته توحي بالطيبة واقترب منه متسائلا عن صاحب المكوى فأجابه الرجل: (ان اليوم الخميس وغدا الجمعة، يوم السبت يحضر صاحب المحل

ليعاود نشاطه) وأوجس صاحب المحل من تذمره، فأخذته العاطفة ورد يستفسر منه: (هل لديك غرض مستعجل يا بني؟) فاغتنم الفرصة ليبوح بما يخنقه من فقدانه لنقوده التي لم يتأكد منها تماما. لاحظ بحدسه الفطري ان الرجل لم يُفاجأ بخبر النقود بل رد بهدوء عليه: (لا تبتئس يا بني، اذا كانت من نصيبك تجدها بإذن الله).. مما ادخل أملا في نفسه.

جاء يوم السبت وهو ينتظره بفارغ الصبر بعد التحية الصباحية على صاحب المكوى مستفسرا بهدوء.. فرد عليه التحية مع ابتسامة وجدت طريق الاستحسان الى وجدانه: (نحن نفتش الملابس قبل كيّها وانا عثرت عليها وشهد صاحب المحل على مقدارها) ومازحه صاحب المكوى بهديته فرد عليه باسترخاء: (كم هي)؟.. قال:(اربعة علب من الشراب المُسكّر)! فارتسمت على وجهه ابتسامه عريضة واساريره تنطق بالضحك دون صوت متفاجئا بطلبه وقال له: (اعطيك سعر ثلاثة وانت تتكفل بشرائها)! وأغدق عليه ارق آيات الشكر على حسن صنيعه.

الفصل العاشر

(1)

دروس وعِبر على هامش الجامعة

انهى الفصل الثاني من الدراسة بتحسن قليل، ولكن جاءت النتيجة مخيبةً لآماله من خلال رسوبه بثلاثة دروس من مجموع اثني عشر درساً وتفاجأ بها عند النتيجة بأنها منفصلة حتى تتوافق مع الوحدات الدراسية المطلوبة للمرحلة الاولى.

قضى عطلته الصيفية في الريف بين جمع محصول الحنطة لمساعدة عمه الذي أخذ يشكو من قساوة السنين وبين ومراجعة دروسه في بيت القصب الذي احتضنه بديلا عن مكتبة الجامعة.

شارك في اداء الامتحانات وكانت نتيجته مفرحة من خلال تجاوز المرحلة الاولى العصيبة.

دخل العام الدراسي التالي وسكن الاقسام الداخلية مع بعض من زملائه من مختلف الاقسام ماعدا زميل واحد من قسمه وشعبته تطورت علاقته به حتى اصبح كظله.

(دايخ) اسم ذلك الصديق، كان واضحاً ذكياً طموحاً، ينتمي إلى عائلةٍ فلاحيةٍ من ريف مدينة كربلاء، وهذا ما جعله يتوافق روحيا معه، وفي الحقيقة كان ملهماً له، ويلجأ بتمثيل حالة التنافس وبالذات في الجانب الدراسي وكثيراً ما كان يمزح معه من خلال كيل التهم لهُ، ليثير غضبه وينتظر ردة فعله التي غالبا مايغادر بها صديقه المكان، ثم سرعان ما يُرضيه لأنهُ يعرف ما يحمل من روح شفافة لا يكترث لمشاكساته.

كانت المناكدة المؤذية والساخرة توجع احيانا ولكنها لذيذة لأنها نابعة من افئدة لا يدخلها الحقد. كان له توأم الروح، تشاركا بالأفراح التي كانت شحيحة وتضامنا في ايام القهر

والاحزان وما اكثرها، فكان له مرآة نفسه التي لم تكسرها السنين.

يعترف (جميل) بالفضل الكبير لصديق عمره، بانه كان عنوان نجاحه؛ قد يفترقان ثم يتواصلان وكل منهما يأمل ان لا يفصم الزمن عرى صداقتهم المتينة.

كانت تلك السنة مميزة في حياته لأنه بدأ يستوعب الحياة الجامعية وانخرط في كثير من النشاطات الاجتماعية، ومشاركة زملائه من الجنسين أفراحهم واتراحهم، فقد شارك مع لفيف من زملائه بالسفر الى مدينة (جلولاء) لتعزية زميلهم(علي) بوفاة اخيه، والى مدينة الرمادي لتهدئة خاطر زميلتهم(عفاف) لوفاة والدها فضلاً عن مشاركتهم بالسفر الى بعض المناطق السياحية مثل بحيرة (الثرثار) ومنتجع (الصدور) شمال بعقوبة وعقرقوف اطراف مدينة بغداد.

نمت علاقة وثيقة بينه وبين زميل له من نفس القسم، كان صديقا لـ (دايخ) وابن مدينته اسمه (عدنان) وكان

يختلف عنهما لكونه ينحدر من عائلة ميسورة، وشاءت الاقدار ان زاره مرة الى بيته في (باب بغداد) من مدينة كربلاء، وانبهر بداره واسلوب معيشته بل وغبطه ومنحتهما الايام صداقة متميزة، وكثيرا ما يخرجون للتجوال من الاقسام الداخلية باتجاه باب المعظم او احيانا يتجاوزون ذلك.

كانت ملامح (عدنان) توحي للعامة على انه شاب مُترف وكان هادئا صادقا مدللا بهي الطلعة ولكن الايام صهرت الفوارق بينه وبين (جميل) ابن الريف إذ اشتركا بمصروفهما عند التسوق او التجوال في المدينة. انها تجربة تلفت الانتباه فكان (عدنان) يحجم عن الشراء ولو كان بحاجة لها لئلا يقتحم مشاعر صديقه ويحاول ان يؤكد لـ (جميل) انهما في مستوى واحد، وجميل يحاول أن يُراعي صديقه ويعتد بنفسه ويؤكد لذاته ان الفقر ليس عيباً او مثلبة.

توافق (عدنان) معه مرة اخرى، بأن ليس لهما علاقة زمالة مميزه مع أيّ من زميلاتهما رغم أن العديد منهن معجبات بعدنان لِما يحمله من صفات تثير طموح اي فتاة، وكان يستغرب تجهمه منهن إلا انه افشى له بسر علاقته ببنت خاله الجميلة التي اقترن بها بعد تخرجه.

اما هو فكان خالي الوفاض على مضض، ليس منعةً او حلماً منه بل تجبره ظروفه القاهرة فيحسب بدقة لكل واردة او شاردة لئلا يقع في المحظور الذي قد يفسد طموحه.

ليس مثلمةً أن يعترف أنهُ كان يمتلك قلباً مليئاً بالعواطف التي ينهرها باستمرار ضميره كلما ارادت ان تظهرها تصرفاته، وكان يوحي للآخرين غير ما يكتمه في حنايا الضلوع من خريطة معتمه حدودها ممتدة من قريته وذكرياته المؤلمة الى ابواب جامعته ولكن لا تمنعه من أن يعيش حياة جامعية على قدر مرضي، فكان صاحب نكته بعفوية الريف مصحوبة بهزل محبب لزملائه، ويحاول

بلباقة ان يوهمهم بأشياء غير ماهي للمزاح وخاصة عند شراء الملابس من الاسواق الشعبية، ويتظاهر لهم انها من محلات يستهويها الشباب مما يلجم ألسِنَة زملائه السليطة التي تريد ان تنال منه ثارا لمقالبه بهم.

العام الدراسي التالي اختار (دايخ) بجرأته المعهودة سكناً مميزاً في حي (الوزيرية) وبصحبته (جميل وعدنان) فكان مكاناً هادئاً تضلل الطريق منه باتجاه الجامعة، اشجار اغلبها من (اليوكالبتوس) وعلى جانبيه حدائق تنبعث منها عند الليل خاصة رائحة تنعش الانفس مصدرها النباتات المنزلية العطرية مثل الكاردينيا، والياسمين، و(الشبوي)[12].

وكثيرا مايشاركهم هذا الطريق الشخصية الاعلامية المعروفة فيما بعد (د.مجيد السامرائي) وهو يتأبط كتبه

(12) الشبوي: هي شجيرة تزهر في فصل الربيع وهي كلمة مركبة من (شب وبوي)وتعني باللغة الكردية (الرائحة الليلية) وتتميز هذه الزهور بصغر حجمها ورائحتها العطرة المنعشة، وتستمر حتى الصباح إذ تتساقط الزهور وتكون تحت الشجرة كالسجادة البيضاء لكثرة الزهور، وهكذا حالها كل مساء؛ تُزهِر وعند الصباح تتساقط الزهور.

عائدا من المكتبه العامة القريبة من كليتهم عند كل مساء لاكمال دراسته العليا فكان لهم طير السعد كلما يلتقيهم ليشحذ بهم روح الاندفاع والامل يغبطونه لان تلك الدرجة لاينالها الا المبدعون في ذلك الزمن.

لم يسلم (دايخ) من مشاكسته المحببة المستمرة له واحيانا يقسو علية ولكن قلبه الكبير سرعان ما ينسى ويقابله بود حميم. كان هذا العام جديراً بالاهتمام من الجميع، لأن تعتمد درجاته في المعدل التراكمي النهائي.

في ليلة من ليالي الصيف فوجئ بزيارة والده مع احد معارفه الى قسمه الداخلي، ابتهجت أساريره ليس فقط بالزيارة الوحيدة طيلة حياته الدراسية بل بما تجود به يده الكريمة، كان والده مسرورا مغتبطا امام معارفه وزملائه مما اضاف من رصيده المعنوي لدى زملائه وهو يدرك الان انه قد حقق احلامه من دون ما كان يخطط له.

انها عاطفة الاب لم تلجمها الظروف ويدرك تماما ما يسمعه من الناس إنَّ ولَدهُ مسالمٌ مطيعٌ، وكان يعرف جيدا

أنه رأسماله في الحياة عندما تغضب الايام، وهو على أبواب التخرج.

احد الايام تم تعميم ضوابط ارتداء الزي الموحد وشاءت الصدف أن تقوم اللجنة الانضباطية بالتفتيش ودخول القاعات الدراسية، وكانوا يتابعون الاستاذ المحاضِر عند اخذ الغيابات اليومية ليسجلوا الطلبة المخالفين، كان هو أحدهم ذلك اليوم بارتدائه(بنطلوناً) مغايراً للون الزي المطلوب وكان يجهل ما يترتب على ذلك الا انه فوجئ باعتباره راسبا للدور الثاني في مادة سهلة (علم النفس) تم اختيارها من قبل مجلس الكلية، وقد اثرت على معدله التراكمي في تلك السنه.

(2)

ذكريات جامعية

لم يكن الوحيد من زملائه من خارج بغداد بل أن عدداً غير قليل يبقون عند عطلة نهاية الاسبوع أو غيرها من العطل في القسم الداخلي، مما يشكل مع بعضهم من خفيفي الظل المرحين مجموعة لا تتجاوز عدد اصابع اليد الواحدة يتجهون في بعض المرات مساء كل خميس الى شارع (السعدون) الذي يكون حافلا على الدوام بمختلف الزوار، فمنهم من يكون قاصدا دار إحدى السينمات او مراجعاً احدى العيادات الطبية، او منهم من ينوي التسوق لما يشتهر به من ماركات عالمية.

كان بين المجموعة شاب اسمر نحيف اسمه (حسين) يحمل روحاً فكاهية فريدة ممزوجة بطيبة أهل (البصرة) التي ينتمي لها وصاحب صوت جميل، ومقلداً للشخصيات العامة.

كانوا يختارون في كل مرة مكاناً مغايرا ليستريحوا به وليبددوا تعب الدراسة وما علقت بهم من نكد الايام، وكان زميلهم متميزاً ويأخذ الحيز الاكبر لأُنسهم ومرحهم حتى تعلن الساعة منتصف الليل، بعد ان تدب نشوة شرب علبتين من بيرة (فريدة) او احيانا يرتشفون البيرة بحاويات ذات حجم معلوم(درافت) أمام سينما أطلس لكنه لم يذعن لالحاحهم باحتساء احدها، وفشلوا في اقناعه واستعاض عنها بمشروبٍ غازيّ لان احشاءه لم تستغ ذلك المشروب بعد تجربة سابقة، ولكنه كان مرحاً منتشياً، لم يحسّس اصدقاءه ويغير مزاجهم ثم يعودوا ادراجهم من غير واسطة نقل، بل يبدأ (حسين) بصوته المحبب بوصلات غنائية قصيرة تتوافق مع حركة سيرهم وهم يضحكون بعد ان بدأت شوارع (السعدون والرشيد) تُشَلُ الحركة فيها من المارة والسيارات نوعاً ما، وكان صديقهم لماحاً يخفض من الصوت والحركة عند مرورهم بأماكن محظورة، ثم ينعطفون الى ساحة (الميدان) ومنها يدلفون الى (باب

المعظم) ويتجهون شمالا مرورا بكلية الفنون الجميلة التي لا تبعد عن سكنهم سوى أمتار قليلةِ.

(3)

لحظات الوداع

تابع (جميل) دراسته للعام الدراسي التالي وهو العام الاخير وبنفس مكان السكن السابق مع كل من (دايخ وعدنان) و(ماضي وباسم وغيرهم) من اقسام اخرى وبذل جهوداً استثنائية في الدراسة اثمرت على رفع معدله التراكمي الى درجة الجيد، وهو لم يفارق حلمه القديم بان يجد له نصيباً في تكملة دراسته العليا.

هذه السنة مرت بسرعة، كانت الدراسة شاغله الاول وطغيان التفكير بالمستقبل المجهول يربكه، وعلى مرور السنة كأنما يودع زملائه باستمرار ويتبادل الوداع في كل حين بصمت وبنظرات طويلة الى كل اجزاء اروقة الكلية او غرف النوم في القسم الداخلي.. واصبح يألف الوداعات كما يألف سرير نومه الى ان حان الوداع الذي كان مبللا

بالدموع مع زملائه من كُليته.. وكلٌ منهم يطلب من الآخر ان يصفح عن أية زلّة، ورجع الى القسم الداخلي، كانت صورته بالأمس جنينة غناء بأحبته والان اصابها حاصب لم يتحمله واختلى بنفسه وبكى بكاءً شديدا، لأنه احس بخسارة أصدقائه الذين اهدتهم له السماء من دون مِنّة ومن هذه الاجواء التي عاشها بأُلفةٍ شديدةٍ معهم دون الاكتراث بإرهاصات الماضي المؤلم ليعود مرة اخرى الى الحياة الريفية التي مقتها منذ المرحلة الابتدائية.

كانت حياته الجامعية زاخرة بأصدقاء مخلصين وتجارب اغنت شخصيته الفطرية وصقلتها واستلهم كل ما جادت به الحياة الجامعية بسرعة فائقة بعدما كان مشتت الافكار كثير التردد، ضعيف الحجة الى شخصٍ واعٍ لبق حاز على ثقة زملائه في مواقف عديدة حتى كاد ان يكون متصدرا في بعض الاحيان بالرأي والنصيحة لهم. كانت تلك السنة من اقسى سنوات الكلية التي مرت به..اهتدى ان كل شيء مؤقت (الاشخاص، المشاعر، اللحظات، الازهار). تعلمَ الاحساس بالالم ويبقى هادئاً..ادرك ان

الاشياء تؤخذ باضدادها مثل الحزن والفرح، والموت والحياة، والسكر والحنظل، وهذا اصل توازن الكون كما انتهجته روبي كور(هندية المولد كندية شاعرة ورسامة ومؤلفة كتاب الحليب والعسل).

الفصل الحادي عشر

(1)

معترك الحياة الجديد

نال شهادة البكالوريوس في كلية التربية في علوم الكيمياء وجاء اليوم الذي يلتحق به الى الخدمة العسكرية في مستهل شهر آب من عام 1977 وكانت محطته الاولى في كلية الضباط الاحتياط الثانية. خفف من وطأة حالته المضطربة، اللقاء بزملائه قبل أن يتم نقلهم الى معسكر (الصدُور) في مدينة ديالى.

في داخل المعسكر بدأت التدريبات الشاقة منذ الصباح الباكر وكان صوت رئيس عرفاء الوحدة مميزاً وصادحاً من خلال ايعازه: (است.. ريح) إذ يقوم ببلع الحروف المتبقية للايعاز وكل منهم شاء أم أبى يقوم بتطبيق ما يُريد استجابةً لنغمة الصوت التي تعوَد عليها الجميع.

كان الحديث بينهم عند الاستراحة لا ينفك عن مستقبلهم بين الشطط في اليأس والتمني في تأجيلهم من الخدمة العسكرية كما وعدوهم.

تلقوا أمراً بنقلهم الى معسكر (الرشيد) ضمن الفوج الثالث واجبات واخذوا منهاج تدريب المشاة. التقى بزملاء الدراسة بالأمس ورفاق السلاح اليوم (دايخ، وعدنان، واحمد، وحسين، ونجم) والبقية..، وهنا بدا فصل جديد من المزاح في غير بيئته المعهودة.

في صباح كل يوم يخرجون الى ساحة العرضات ويبقى اثنان منهم خفر قاعة وكان زملاؤهم من بغداد يُعفون من الواجبات الليلية برضا زملائهم من المحافظات الذين تحتم عليهم ظروفهم المبيت في المعسكر.

كان زملاؤه من سكنة بغداد يجلبون معهم في كل صباح وجبات من الطعام من دون دعوة الاخرين من أبناء المحافظات، فحاكَ مكيدة بالاتفاق مع بعض من زملائه، ممن هم في واجب الخفر، بالتفتيش عن ما يخبئون من

الطعام وهم في ساحة التدريب، ليأخذوه برحابة صدر، ممزوجاً بنوبات من الضحك والتعليقات الساخرة منهم عند عودتهم من التدريب امام الجميع.

وقتها كانت الأجواء صيفية رمضانية يستغلون الليل بممارسة لعبة (المحيبس) الشعبية إذ يترأس(جميل وحسين) الفريقين المتنافسين ليُظهِر كل منهما بطولته وفراسته بإخراج المحبس كصقر يطارد فريسته بِهُدى الاشارة المتفق عليها بين الاثنين، امام اعجاب الحضور ولكن يبقى فاقد البصر اذا اراد الآخر أن ينهي دوره.

في الصباح يتسلم القيادة نائب عريف (احمد) آمر فصيلهم الذي بدأت معه وشائج ودٍّ من خلال مشاكسات (جميل) ضد (دايخ، واحمد) فكلما لاحظ اي خطأ في اية حركة منهما أشار الى امر الفصيل الذي بدا يُجاريه بِمُزاحه واخذ ينهرهما بلطفٍ لم يبالوا به بقدر غضبهم مما يصدر من (جميل) من تعليقاتٍ ساخرة، الا ان وقوعه مرة في خطأ فاضح بأداء التحية باليد اليسرى، وزجره امر

الفصيل بصوت قوي وصحح خطأه بسرعة البرق خشية من معرفة زملائه بالأمر واسعفه انه كان في مؤخرة الفصيل، وتوسل بآمر الفصيل عند الاستراحة من أجل كتمان تلك الفضيحة!.

عند أية استراحة من التدريب او في أي تجمع تحصل اجتهادات وجدال محوره تأجيلهم من الخدمة العسكرية ثلاث سنوات وتعيينهم، وهذا الامر كان مختمرا عند الجميع وأغلبهم فضّلوا كلية التربية حرصا لتحقيقه رغم معدلاتهم التي تؤهلهم للدخول الى كليات اخرى.

كان زميلهم (حسن) في قسم التاريخ له صولات وجولات في هذا المنحى؛ مرة يجلب معه اخباراً منشورة واخرى من خلال تحليله البهلواني، وكان مميزا بصوته الرخيم كلما يصغون له يستنشقون من جدّية عرضه نفثات من الامل الحذر.

جاء الخبر اليقين وأخبروهم بإجراءات التأجيل من الخدمة العسكرية، ومن مستلزماته دفتر الخدمة العسكرية،

تطلب منه سفره الى مدينته الشطرة وحضر متأخرا قبل ساعة من إجراءات التأجيل من صباح ذلك اليوم التي يتكفل بإتمامها قلم الفوج، وعلَّق زملاؤه على تأخره والذين كانوا يتصيدون مثل هذه الفرصة لينالوا منه، إذ علّقَ أحدهم بان عليه أن يجلب عفش النوم في المعسكر حتى يصل دوره ولكن الصدفة كانت حاضرة، انهم نادوه أول اسم.. لم يُصدِّق مسامعه لأنه سلّمَ دفتره متأخراً فأصبح في البداية مما جعله يسخر من زملائه ليصد عبثهم.

(2)

متاعب مدرس

صدر الأمر الوزاري لهُ مع من تخرج من كُليته كافة بالتعيين، كلٌ حَسْبَ محافظته.. كان سعيدا ليحقق شيئاً جديدا في حياته.

راجع مديرية التربية وقدم طلبه ليكون تعيينه في مدينته التي حلم ان يكون فاعلا بها وقريباً من بيت اخواله ولكن المدير العام رفض اختياره واقترح اختياراً آخر لم يستسغْهُ، ولم يلحْ كثيرا الى أن هدأت الامور، وأحسَّ ان المسؤول الاداري طيب السريرة (ا. ايوب) كان متعاطفا معه وراجعه في أحد الأيام، وأخذ أمر التعيين منه وأشار بقلمه على متوسطة (البعث) الكائنة في مدينته ودخل به الى المدير العام وخشيَ من الرفض، بعد فتح عينيه باستهجان عندما شاهده فحبس انفاسه وتظاهر له بالتذلل، ثم انزل بنظره باتجاه مقترح مدير الادارة وصادق عليه وخرج مشرقَ الوجه متهللاً في سرور بلغ النشوة بانه حقق ما يتمناه.

التحق بمدرسته عام 1977 وكان اصغر مدرس في مدينته، نحيف البدن شديد الخجل لأن اغلب المدرسين في المتوسطة هم من درّسوه فوجد صعوبة بالتآلف معهم حياءً.

كان درس الكيمياء شاغرا ليس في مدرسته فقط بل في بعض المدارس فاستغلها فرصة بأخذ محاضرات في متوسطة (التحرير للبنات) وفي ثانوية (الشطرة المسائية) فكان يوميا يُدرِّس ثلاث عشرة محاضرة من المرحلة الاولى حتى المرحلة الرابعة. وفي السنة الاخيرة من تأجيله كان يُدّرِس تسع وخمسين محاضرة في الاسبوع من ضمنها درس الرياضيات للمرحلة الاولى، الذي هو من غير اختصاصه وكان موضع اعجاب من مشرف اختصاص الرياضيات(محمد منخي) واعطاه تقييم (جيد جدا) مما اثار اندهاش مجموعة من زملائه القدماء، لان هذا المشرف صعب المراس. كان هذا في مدرسته التي تداوم دواما مزدوجا ويكمل بتدريس ثلاث الى اربع محاضرات في ثانوية الشطرة مساءً. لم ينل اي قسط من الراحة طوال اليوم إلا في نصف الساعة المحصورة بين انتهاء الدوام الصباحي، وبداية الدوام العصري الذي يليه في مدرسته إذ يستغلها بالتهام وجبة غذائية سريعة محدودة الكمية لم توازِ جهده.

اغلب اوقات عودته من التدريس المسائي تكون بعد التاسعة ليلاً منهكا متعباً يُرغم جسده على ان يبقى منتصباً بقطع المسافة بين الثانوية باتجاه الفندق بعد انحرافه يمينا او يسارا لتجاوز تقاطع محاط بسياج مشبك من الحديد ثم يستقيم قاطعا سوقاً غير مكتظ بالناس حتى يعبر جسر المدينة ليميل قليلا بنظره يسارا حتى يكون بمواجهة مقهى(الحاج عبيد) التي ينعتها العامة بمقهى(المعلمين) لان غالبية روادها منهم.

هذه المقهى طبعت بذاكرته أجمل الذكريات وانقاها، فبها يلعب مع مجموعة من اصدقائه (الدومينو) التي رسخت احداثها الجميلة في ذاكرته مع مرور الزمن. بجوار المقهى رجل حسن الهندام يبيع أكلة (المخلمة) التي ينفرد بها بمذاق لذيذ يُدعى (ابو كريم) والذي اصبح زبوناً دائماً عنده عندما تعلن عقارب الساعة العاشرة ليلاً.

الفصل الثاني عشر

(1)

أَوَّلُ ٱلغَيْثِ قَطْرٌ

كان راتبه عند تعيينه (خمسين) دينارا يعطي نصفه لوالده واستمر على هذا النهج مدة من الزمن قبل أن يختمر في ذهنه مشروعٌ لشراء قطعة ارض سكنيه يملكها والده توسل إليه ان يقدم عليها في حينها من نقابة المعلمين لاعتراضهم عليه لكونه طالبا في ذلك الزمن.

كَلّفَ صديق والده المُقرّب (المعلم صلاح) مع خاله (صاحب) وتوجه معهم الى القرية لاقناع والده بشراء القطعه والتي كانت قيمتها (2000) دينار وتوصلوا معه الى اتفاق مرضٍ، وفعلا تسلم والده المبلغ من حسابه المودع في دائرة البريد الذي يدّخرهُ من تلك المحاضرات الاضافية ومن خلال اللقاء الذي دار بين والده وضيوفه استدرك والده حديثه: (كيف يستطيع بناءها..كنوع من

التهكم؟) لأنه لم يقتنع ان يشيد دار سكنية للغلاء الشديد في مستلزمات البناء في حينها وكان محقاً.

توكل على الله وبدا يثبت القاعدة الاساسية للدار وارتفعت اعمدتها الكونكريتية متحديةً الفضاء، وفي احدى الامسيات وهو يعمل برش الكتل الحجرية بالماء ليرص موادها الكلسية فوجئ بوالده يمسك احد الثوابت القريبة منه، وكأنه يراجع عبارة عدم الثقة التي اطلقها سابقاً ليمنح فلذّة كبده حافزاً ويُنمي فيه روح التحدي وهو الان يجد ما يبهره .

(2)

بِرّ الوالدين

في ربيع السنه الثانية من تعيينه عام 1978، عزم والده ان يلتحق بموكب المؤمنين لحج بيت الله الحرام، وتذكر امنية والدته عليه بزيارة الائمة الصالحين وخاصة في

كربلاء والنجف والتي حققها لها في الاشهر الأولى من تعيينه، والان يفاجئها لتكون ضيفة الرحمن مع والده. كانت الأجرة مائة وسبعين ديناراً، وحجز لهما مع احدى القوافل،(صاحب المكتب حاج شلاش جبار)، التي تنطلق من مدينة الشطرة باتجاه عرعر الى المدينة المنورة.

كان سعيدا بان يبر بوالديه وبالذات أمه التي ذاقت نكد الايام وقساوتها، وهي صابرة تعتصرها مرارة شظف العيش وقصر جناحها الذي يختبئ تحت ظلاله، تسعة من الاولاد والبنات، واليوم اهداها الله ابناً يبارك بِبرّه ليجبر خاطرها بعد بؤس الحياة وتعسفها الذي طال ردحا من الزمن.

(3)

مَشاعر بين النُضج والمراهقة

كان بين زحمة التدريس ومشقة البناء، يفتقر الى قلب يحسّ به ويشاركه طموحه او على الاقل يهدئ من خاطره وهو في بيئة تكتظ بالبنات الجميلات اللائي ينتسبّنَ الى عوائل معروفة لكن ضيق الوقت وعسر الحال لم يطلق العنان لعواطفه الا بعد رمية اعجاب من فتاة محمرّة الوجنات، دقيقة الانف، ذات شعر بني فاتح تنسقه بتسريحة يكون اغلب شعرها ملتفاً على راسها بشكل ظفيرة تمنحها تاج الاميرة او احيانا على شكل ضفيرة واحدة متدلية بارتخاء على اكتافها وفي كل الانواع يرسم مع مفاتنها البسيطة صورة محببة ولطيفة من يتمعن بها يظنُّ انها شابة في سن المراهقة تحاول ان تلفِت أعجاب الاخرين وتُجبرهم ان يدققوا النظر ليتمعنوا جيداً في انوثتها

وتتقصد في مشيتها المتأنية حتى من الممكن ان تعد خطواتها.

اصابت رماح دلالها (جميلاً) بمقتل وأَسَرتهُ وتبادل الحب معها الى حين، وكان حبها عاصفاً لصغر سنها او كانت تحبه الى حد الوَلَه.

في أحد الأيام، لملمت ذكرياتها منه على حين غَرّة وهو يجهل السبب إلا انه عَلِمَ بعد فوات الاوان.. صدّقت خبراً غير صحيح فحواه ان له علاقة بأحد الفتيات التي هو يجهلها، ولم يستطع اصلاح الامور لأنه التحق الى الجيش ليكمل ما عليه من الخدمة الالزامية.

الفصل الثالث عشر

(1)

سنوات الجحيم

انقضت مدة التأجيل البالغة ثلاث سنوات. قام بمراجعة دائرة التجنيد مصطحباً معهُ كتاب الالتحاق الى مدرسة التدريب في مدينة (الديوانية) كجندي مكلف.

يتدرب هناك نهاراً ويمسك الخفارة ليلاً ومعه نفر من زملائه ومعارفه منهم (كريم ورزاق) وكل منهم يحاول ان يُبدّدْ قليلاً من التوتر الذي خيّم على نفوسهم من مجهول الايام القادمة.

لم تنقضِ فترة غير طويلة حتى تناهت إلى مسامعه أخبار اشتعال الجبهة الشرقية بحربٍ لم يدرك هو واصدقاؤه ماهية ما يحدث وما تؤول إليه الامور.

في صباحٍ باكر تم استدعاؤه على عجل من قبل المسؤول الإداري للمعسكر، وسلّمه كتاب نقله الى كلية (الضباط الثانية) في بغداد والتحق هناك في الفصيل التاسع من السرية الثالثة.

لم يعثر على اصدقائه من دورته الا (حسين) صديقه القديم الذي اخبره عن صديقهم (عدنان) انه تظاهر بثقله لأنه كان بدينا ليتم نقله الى احد ألوية المشاة، وتأثر كثيراً لأنه لم يلتقِ به، فضلاً عن صديقٍ آخر هو (عبدالحسين) من قسم علوم الحياة ومن محافظته وكان شخصاً ريفيّ الطباع، لبيباً، صبوراً، لم تشعر منه أياً من علامات التذمر، وعدد قليل متفرقين على بقية الفصائل التي معظم ملاكها من المتخرجين توا.

كان التدريب صارما، واخبار الجبهة ضاغطة على الجميع وفي كل تمرين تبدو ملامحه ضمن قطعة عسكرية تحت خط النار.

كان آمر فصيله (نقيب قيس) دمث الاخلاق هادئ الطباع ولكن صرامة الاوامر من الجهات العليا تجعله يشتد في تجهمه على مرور الايام، ليصقل شخصيتهم ويجعلهم يتوافقون مع اصعب الظروف.

يتذكر بعض المواقف التعسفية التي شحنت في نفسه ذكريات لا تمحى، ففي ليلة شتائية تقترب سواقي المعسكر فيها من التجمد والساعة تجاوزت منتصف الليل والجميع كأنهم جثث هامدة تحت اغطيتهم الثقيلة واجسامهم متكورة ليحتموا من البرد القارص بعد عناء من يوم مُتعِب تواصل فيه التدريب الصباحي والمسائي، واذا بهجوم مباغت بالرفس على ابواب القاعة ونكزٍ بالعصا مع ضجيج من الاصوات وكلمات زجرْ: (انهض) وتجمع الجميع حالا بلمحة بصر. كانوا متجمدين وقوفا في ساحة بين القاعات، واعطى ضابط الخفر (نقيب ماجد) اوامره بين (اجلس، وقف، وامتد، واركض) على الارض التي فيها اماكن مبتلة واخرى يابسة ومرة يتجاوزون السواقي عرضا واخرى طولا وهم بكامل القيافة حتى كاد (جميل) ان يُشلُّ نهائيا في

الدقائق الاخيرة من ساعة العقوبة، وفي الصباح لم يسعفه بدنه ان ينهض فقد خارت قواه تماما وتشنجت عضلاته ولم تطاوعه وبمساعدة زملائه ارتدى قيافته واتكأ على بعضهم ليحضر للتعداد الصباحي وعَلِمَ آمر السرية بتصرف ضابط الخفر غير اللائق.

في موقف أخر، اختمر في ذهنه وهو يبتئس جدا من أن احداً ينال منه بصفعة على خده وكان حذرا طيلة حياته من ان يتعرض لمثل هذا الموقف، وفي يوم نهاية دورة الصاعقة التي تمارس فيها اقسى التدريبات واصعبها يمر المتخرج على مجموعة من المدربين يشكلون حلبة على شكل حلقة ناقصة ويستوقفه احدهم المتصدر عند بداية الفتحة ويدعي انه يحاور المتدرب ثم يبدأ الهجوم عليه من مختلف الجهات بالهراوات غير الحادة، وتبقى على قوة ومهارة المتدرب كيف يتخلص من الموقف، وجاء دوره وسبق المدرب عند الفتحة بالرجاء بأن لا ينالوا منه بالصفع وفوجئ من الخلف بصفعة لئيمة قوية استشاط منها غضبا عندها وبدون تفكير هجم على احدهم دون

اكتراث ما يحصل ومسكه حينها وتجمع عليه البقية بهراوتهم ففقد صوابه بعد ان اثخنوه ضرباً، وامسكوا بصاحبه واستدرك حاله بأنه لابد ان يتخلص من المأزق بهروبه من الحلبة والا يجهزوا عليه تماما، لكنه بقيَ يبحث عن غريمه ليثأر لحاله ولكن دون جدوى.

في احد الايام جاءه صديقه (حسين) بوجه مكفهر على غير عادته وهو في قاعة المحاضرات وهمس بأذنه خبر استشهاد صديقهم (عدنان).. آه .. وقع الخبر على رأسه بثقل الزلزال واخذ يردد من دون وعي: (صديقي.. ذكرياتي) .. تبّاً لهذا الخبر.. اختلى مع صديقه (حسين) ليعزي احدهم الاخر ولم يعلموا حينها انه اول السابقين من سلسة الشهداء التي قد تطالهم من حربٍ لاتنتهي.

تسلموا تبليغاً على عجل ان يتهيأوا لإنجاز مهمة تعبوية للدورة كافة، ومن الصباح توجهوا صوب الغرب على الطريق المؤدي الى مدينة الرمادي وانحرفوا قليلا قبل الوصول اليها وتوغلوا داخل صحراء تكثر فيها الكثبان

الرملية المتحركة وتوقفوا عند مكان كان مؤشراً سابقا او على الاقل تم الاطلاع عليه من قبل.

نُصِبَت الخيام السفرية واختار (محمد) الذي توطدت معه علاقة صداقة مميزه احد اركان خيمتهم واشار على صديقه (عبدالحسين) ان ينضم اليهم.

كان (محمد) لطيفاً، خفيف الحركة، خريج كلية التربية الرياضية، اهتم بـ (جميل) ومداراته في شؤون ما تقتضيه الحياة اليومية القاسية. استمر التدريب اربعة ايام تحت وطأة ظروف بيئية معتمة اشتدت فيها الرياح الشباطية الممزوجة بكتل من الاتربة حتى كادت أن تحجب الرؤية تماما.

وكان محمد ينسل بسرعة رغم تلك الظروف ليجلب الافطار لاثنين فقط مما اغاظ (عبدالحسين) واعتبر هذا نكاية به وعاتبه واوضح له الموقف؛ ان محمداً بدأ كذلك يمتعض من الظروف القاهرة وممكن القول إنّ الجميع في حالة نفسية مدمرة.

في بداية اليوم السابع انسحبوا على عجل لان الظروف اصبحت لاتُطاق وعادوا ادراجهم وبعدها اعلنوا تخرج دورتهم الحادية والثلاثين كضباط مجندين.

حضر الجميع لاختيار وحداتهم التي ينقلون اليها وجاء دوره وهو سارح التفكير في ما ينتظره ومدَّ يدهُ الى حاوية الاختيار وسرق نظره الى داخلها وقرأ في نهاية الورقة كلمة (قيادة) حَدَسَ انها قيادة القوة الجوية، وأمسك بالورقة ومانعته وبإلحاح منه التصقت بأنامله واخرجها بصعوبة ولم يكترث لمناداة الضابط المشرف لأنها مصيرية وصعق لمّا قرأها:(قيادة الفرقة الثامنة مشاة) وبحث عن بديل ولكن كل من يقرا الاسم يمتعض.

ودع كل منهم الاخر بحرارة وبحث عن (عبدالحسين) الذي لم يعثر عليه فانقهر كونه يحمل شحنات من الغيظ من تلك الظروف.

(2)

(قافلة الموتى)

أقلّتهم باص كلية الضباط الاحتياط الواقعة في معسكر (الرشيد) مع رفاقه باتجاه الشمال مرورا ببعقوبة وخانقين الى الموقع المتقدم للفرقة الثامنة التي كانت ماسكة الارض عند قاطع ما يسمى (سربيل زهاب) ووصلوا أليها بعد غياب الشمس، ومباشرةً تم توزيعهم على الوحدات المتقدمة القريبة بمختلف الصنوف ماعدا صنف المشاة وكان عددهم ما يقارب من الثلاثين ضابطاً باتوا في مقر القيادة الخلفي، ومن الصباح توجهوا الى مدينة أربيل عند مكان تدريب مقر قيادة الفرقة. وصله خبرٌ مؤلمٌ آخر، بأن صديقه (قيس) استشهد حال التحاقه بوحدته الجديدة!..

(قيس) من اهالي الأعظمية يملك دراجة نارية يصحبه عند النزول في ايام العطل ليوصله الى مرأب النهضة، ويمازحه بحركات بهلوانيه يجيدها ويطلق لضحكاته

الهستيرية العنان الذي من شأنه أنُ لفت انتباه المارة وهو لم يكترث لصيحات احتجاجه لينفث شحنات ضجر الحَجِر التي يقضيها داخل المعسكر على مضض ليسعد بحريته، ليقلد حماماته عندما يطلقهن من اوكارها فكان مولعا بتربيتها ويجيد تقليد اصواتها التي تجد قبولاً عند صديقه الذي طلب منه ان يسمعه فصلاً منها ليهدئ من مشاكساته، ولكن هذه المرة أبى متعمدا.

كان يوما عصيبا عليه وهو يراجع شريط ذكرياته مع (قيس) الذي كان يناديه (قيس الهوى) وهو يبادله بضحكات ندية تختزلها البراءة التي ترتسم على وجهه الدقيق المسالم والذي اكتسب ملامحه من حماماته التي يعشقها.

انهى دورته المقررة التي ختمها بيوم مزعج وهو الرمي عن قرب، وكان دوره في حافة المرفق الخاص لزحف المتدرب ضمن قفص دائري مستعينا برجليه محدودة الحركة، والمدرب ضابط محنك خبير بالرمي (مقدم موفق)

وقد اقترب جدا من جهة اذنه اليمنى وكانت كمية البارود التي بدت تضرب الارض عند رأسه ترتد بقوة لتبحث عن اماكن رخوه ومنها داخل الاذن وهو يحاول ان يسرع بعد ان بدأت تثقل مسامعه، خرج بآثار قليله هي ضعف في بعض اعصاب الاذن اليمنى التي يجهل اثارها في المستقبل.

بدأ يوم التوزيع ضمن وحدات الفرقة، وشيء واحد يشغل تفكيره، هو استشهاد صديقه (قيس) كان مؤثراً جداً، ولو كان محتاطاً بالوضع الجديد من الممكن أن يقي نفسه كرفاقه القدماء، فعسى هو يحظى بقرصة يعزز بها تجربته ويتعلم فنون القتال الذي لابد منه ليمنح نفسه فرصة البقاء الى حين.

جاءت نقلته مع رفيقين له، خليل(تسنم رئاسة جامعة الرمادي) وابراهيم(اصبح محماميا مشهورا في مدينة الموصل)، كانت نقلتهم الى فوج قريب من مدينة اربيل والتحق كآمر فصيل ضمن السرية الثالثة التي كانت بأُمرة

شاب لطيف ومهذب (ملازم موفق) الذي أبدى له كل لوائح الكرم وكان شغوفا بالعسكرية واجتهد في ان يكون له شأنٌ كعسكري محترف، حاول ان يقدم على الوحدات المقاتلة المميزة وفعلا تم نقله لها.

(3)

الحب سيدٌ في كل الظروف

نُقِلَتْ وحدته العسكرية الى قاطع مصيف صلاح الدين القريب من مدينة اربيل، ومَسَكَت سريته القاطع القريب من القرية الفرنسية المميزة بدورها السياحية.

تردد الكثير من السيّاح عليها في ذلك العام لان الحرب لم تجد تأثيرها بعد عند أهالي تلك المناطق، ولان الجو في العراق تكون أعلى درجات الحرارة فيه عند فصل الصيف، وبالذات عند شهر تموز ولكن عند هذا المكان السياحي يخالف ما معتاد عليه.

عندما تقف في تلك الاوقات حاسر الراس في اي مكان منه وحتى في وقت الظهيرة لم تشعر بوطأة الحرارة، بل

تأتيك نسمات شمالية تبدد حرارة اشعة الشمس التي تبدو رحيمة مع كل من تواجد على هذا الجبل المتواضع.

سكنت عائلة كردية من اب وام وطفل صغير بعمر أربع سنوات، وشابةٌ يافعةٌ يقترب عمرها من الربيع السادس عشر اسمها (كزنك)..

كانت الدار التي سكنتها هذه العائلة واجهتها باتجاه مطلع الشمس وخلفيتها باتجاه مقر سرية (جميل) التي كان آمرها يفصلهما وادي غير عميق.

كان طريقه الى مقر الفوج، يمر بمسافة قريبة من سكنها واخذ يسترق النظر في كل مرة الى تلك الفتاة التي بادلته هي بالمثل ولكن بحذر ومرت ايام ويتكرر مثل هذا الموقف وتبادلا إشارات الرضا ثم هي بادرته برساله رقيقة تصرح عن اعجابها به بلغتها العربية الركيكة، ولكن فؤاده ادرك مضمونها دون ان يكترث الى خطها..

كانت تحمل اسمها ورقم تلفونها الارضي وهو أعطى رقم تلفون وحدته الوحيد الذي يرتبط بموقع أربيل العسكري، بعدها حصل لقاء او أكثر على هامش السرعة تأكد كل منهما من صدق مشاعرهما.

في يوم ما كان جالساً في غرفة آمر الفوج، ورنَّ التلفون ورفع آمر الفوج سماعته وغمز له انه المقصود، غاب عنه جهة المتصل، واذا المخابر (سامي) يخبره: (معك كزنك)... ذهل وتلعثم عنده الكلام؛ انها مفاجأة يحلم بها ولكنها في غير وقتها، واذا بصوت ملائكي يهمس بإذنه: (انا وعدتك هل تسمعني)؟! .. نعم .. نعم بصوت مهتز خجلا لان آمره قريب منه، ولم يعتد على هذا الموقف واستدرك الموقف بأنه سوف يتصل بها لاحقا.. وبعد لحظات ادّى التحية العسكرية التي يحسنها وينال اعجاب آمره بها، وهو هذه المرة يشيّعه بابتسامة ماكرة واسرع الخطى نحو مكان البدالة وكلّف المخابر (سامي) بمعاودة الاتصال وافلح وتواصل مع حبيبته لفترة عشر دقائق. كانت منحة ربانية بقدر ما اسعدتهُ اثارت في نفسه شجوناً

عميقة وهو يفكر في المستقبل المجهول. تحولت وحدته الى مكان اخر وفي غرفته تلفون داخلي اخبره صاحب البدالة أن له اتصالا خارجياً، واذا بحبيبته وهي تتحدث بضجر واعطت سماعة التلفون الى اختها التي تكبرها بسنوات ولغتها العربية سليمة جدا واخبرته بان أحدهم يتصل بهم وينتحل صفتك! تأسف للموقف وكانتا متفهمتين لظروفه. شَحَّ التواصل بينهما لنقل وحدته العسكرية. في كل اجازه عند العودة الى وحدته، يبيت عند بيت خالته. اخبرته بنت خالته بان (كزنك) في بغداد، اذا توفرت فرصة له، عليه ان يلتقيا. تم اللقاء قرب الجامعة المستنصرية واصطحبها الى مدينة الالعاب وكان وقتها ايام عيد. كانت شابة معجون اللون الاحمر بسمار باهت على خديها الممتلئين غادرت ملامحها الطفولية التي كانت توشحها عند اول معرفته بها.. هادئة جدا، كان اكثر الحديث له، يشعر بزهو وهو ممسك يدها وهي بين الحين والآخر تمد يدها لترفع خصلة من شعرها الذي يتدلى على الجهة اليسرى من وجهها ترغم الناظرين أن تبقى عيونهم

شاخصة بهذا الجمال الربّاني، حتى يدركوا من الاجمل؛ الشعر الفاحم الذي تغازله اشعة الشمس وهي تروم الغروب أم الوجه الاسمر الفاتح المطعون بحمرة، كان الجميع يغبط مالكها الشاب الاسمر النحيف الذي اتعبته العسكرية.. وبعد ان اسدل الليل ستاره طلبت منه ان يصحبها الى بيت خالتها عند محلة (الأكراد) شرق بغداد حتى تأكد من وصولها.

كلف عدداً من اصدقائه ومعارفه من وحدته ومن مدينة اربيل ان يتقدم لخطبتها ولكن عمتها الوحيدة أصرت بشدة بحجة إنها صغيرة وطالبه ثانوية في المرحلة النهائية وقد يكون اختلاف المنحل والمذهب له مأخذ اخر.

(4)

ويستمر ارتداء جلباب الحزن

وهو في مصيف صلاح الدين علم صديقه (زياد) بوحدته وهو في طريقه الى وحدته عند الجبهة الشمالية ومنصبه آمر فصيل الهاونات، يلتحق مبكرا عند عودته

من اجازته كي يزوره ويبقى معه ساعة ثم يتوجه الى وحدته. تكرر هذا اللقاء مرتين بعدها انقطعت أخباره وعلم متأخرا انه التحق بركب الشهداء ليضيف حزنا اخر له.

اتصل به في احد الايام صديقه (ملازم موفق) وكان عند المواقع المتقدمة من الجبهة وبروح مرحة على سريرته المعهودة، يطلب منه بدلة قوات خاصة واوعده ان يلبي طلبه ولكن سبقه المنون ان يمنحه رداء اللحد دون تلبية طلبه وقد اوجعه جداً خبر استشهاده المفاجئ.

الفصل الرابع عشر

(1)

زواج على هامش الحرب

جميع قواطع الجبهة ملتهبة بين كرٍّ وَفر ماعدا قاطع (حاج عمران) الذي يمثل الخط الامامي من الجبهة في القاطع الشمالي الذي كان هادئا في تلك المدة مما شجعه ان يختار خطيبته على عجل، وكان (معلم صلاح) صديق والده صاحب فكرة الاختيار لطالبة في المرحلة النهائية من معهد المعلمين تنتمي الى عائلة لها ميول دينية من مدينته، وكان مترددا في حينها لان مستقبله مجهول والحرب تستعر يوماً بعد يوم بدون نهاية تلوح في الافق.

نُقِلت وحدته الى قاطع (السليمانية)، ومازحه اصدقاؤه بان خطوبته شؤمٌ عليهم، وبعد شهرين وصلتهم الاخبار ان قاطعهم السابق قد أُحتِل من قبل العدو وآمر السرية البديل لسريته قد أُعِدم لترك مقره .

عندما استقر في قاطعه الجديد طلب اجازة زواج ولم تمنحه وحدته الا يومين فقط تضاف على اجازته الدورية، كان زواجه على غير ما هو معتاد، اذ لم تجرِ فيه معالم الفرح لان اجواء الحزن تخيم على الجميع بسبب الحرب واكتفى ان يحجز في احد فنادق بغداد ليقضي اسبوع العسل وفي داخله شعور انه قد لا يلتقي بزوجته مرة اخرى وهو شعور مشروع لأنه عند عودته يعيش في ثغر الموت ينتظر قدره.

أحد الموظفين في دائرة مدنية في ناحية(زرايين) التابعة الى محافظة (السليمانية) صديقٌ له وكان متفقاً معه على ان يتواصل مع عائلته تلفونيا، لأنه ينتظر بشغف مولوده البكر.

زفَّ له ذلك الصديق خبر فحواه.. أن العلي القدير قد رزقه بولد أطل عليهم في ايام ربيعية (اسماه انور لاحقا) وهم في اتون حرب لئيمة.

امتزجت عبارات الشكر للرازق الوهاب مع ضيق صدره في حينها قد وصل الى حد النحيب.. خشية غدر ومكر الحرب التي كانت حينها حامية الوطيس، ويعيش مولوده الذي ابصر النور توّاً يتيماً، ولم يهنأ بطفولته التي من خلاله يعوض ما عانى هو منها ويبقى تشاؤمه المُحِق يؤرقه مع الاف الحالات التي تأخذ في ازدياد في كل لحظة.

(2)

وشاح الموت

لم تكتمل فرحته بمولوده، فقد اخبروه باستشهاد (ملازم عماد وملازم كريم) امراء فصائل من معيته وبقيت اشباحهم تسبب له أرقاً ليالٍ عديدة ومزاحهم واحاديثهم يسمعها كلما توجه نحو موضع فصائلهم فكان (عماد) قد وعد حبيبته ان يخطبها قريبا، و(كريم) على موعد مع أُمه ان ينتقلوا الى دارهم الجديدة.

تنفس الصعداء، وهدأ باله عندما أخبره الجندي حامل جهاز (الراكال) اللاسلكي انه تَسلّم اتصالاً من احدى الوحدات القريبة من ضابط يدعى (نقيب عبدالحسين)..

آه ايها الحبيب عملت حسنا وأجابه صديقه القديم الذي كان متصالحا مع نفسه يهنئه على سلامته، وسَعُدَ باتصاله ليتأكد من مسامحته له عما مضى ولكنه لم يعاود الاتصال به مرة ثانية.. وتمر اشهر قليلة حتى حاول مرات بمناداة وحدته ولم يفلح حتى علم بخبر استشهاده! .. آه (ابا ليث) يا صاحب الابتسامة العريضة الهادئة؛ جُدت بنفسك حتى تجعل أبناءك يفتخرون بك. نضب اصدقاؤه والحرب في اوجها، وحزن حزنا شديدا اشغلته ظروفه التي تملي عليه الصبر والتحمل ومن يعلم قد يأتي دوره.

الفصل الخامس عشر

(1)

مغامرة الموت

يقولون تاتي النجاة من قلب الهلاك وتكتب الحياة في زحام الموت ويكون الموت مع توفر اسباب الحياة ..كثيرا منا يمر بصعاب ويتبرم ويصاب بازمة نفسية ويتخيل له انها نهاية العالم.. وبهذا الشعور تشبعت نفسيته الى حد لايحمد عقباه.

لم ينفك عن طموحه القديم في تكملة دراسته العليا وقد سعى في تقديم اوراقه الى وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، واخبروه في موعد المقابلة ولحظه العاثر كان يوم نقل سريته الى مكان بمحاذاة خط التماس مع العدو واجتهد كثيرا في ان يعمل جاهدا وبأية وسيلة ان يحضر المقابلة واتفق مع أحد الجنود الخيرين من سريته بان يجلب سيارته

(فيات ايطالي) وينتظره عند صلاة العصر أسفل الجبل باتجاه الطريق العام المؤدي الى بغداد قبل يوم المقابلة.

أُكمل احتلال الموقع الجديد المخصص لقاطع سريته في الساعة الرابعة عصرا وارسل برقية للمراجع العليا ذات الشأن وكلّف احد رفاقه (ملازم احمد) ان يتولى إدارة شؤون سريته عند الحاجة وكان عملاً غير صائب لما يترتب عليه من عقوبة قد تصل الى الاعدام ولكنه تغاضى عن كل ذلك عسى ان يحقق حلمه، وفعلا حضر المقابلة في وقتها بعد ان قضى ليلة مزعجة في بغداد وعاد الى وحدته بعد الظهر، وكانت الامور على ما يرام باستثناء (ملازم احمد) الذي خذله لظروفه، وبعد فترة ظهرت النتائج ولكنه تأخر في حينها، إذ لم يُمنح اجازة حتى يأتي استحقاقه وراجع دائرة البعثات وطلبوا منه تكملة جميع اوراقه، وبعد فترة استفسر عن قبوله وكان الخبر صاعقا؛ قبول زملائه الاقل منه معدلا، وهو يستثنى واتضح ان معلوماته الحزبية مُدرجٌ فيها بأنه ضمن فئة المستقلين فاهمل ملفه.

(2)

تباً للياس

عسى ان يكون الخير كامناً في الشر فقوله تعالى(فَعَسىَ أن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً..النساء ..الاية:19) انها الحكمة الالهية العليا. فلاتترتب النتائج القريبة على المقدمات المنظورة بل تهدف الى اغراض بعيدة لايدركها الا الله.

بعد ان يئس من التقديم للدراسة العليا خارج البلاد، ادرك مؤخرا ان الصبر هو الملاذ من القنوط ونافذته للخلاص من الشدائد فتوجه الى الدراسة داخل البلاد وكانت وجهته هذه المرة جامعة البصرة وفرح بقبوله فيها كانه هدية متاخرة لذلك الصبر.

أجرى معاملة التأجيل من الخدمة العسكرية وكانت مطولة ولكنها سلسة بعد ان أدى ما يقارب من الثماني

سنوات متواصلة في حرب ضروس طحنت بها الآفاً من الشباب ضمن صنف المشاة التي ضاعت فيها أحلى أيام عمره واسمى أحلامه وأنبل أصدقائه.

اخذ مقعده الدراسي بين تسعة من زملائه وكان يكبرهم سِناً من ضمنهم معيدون في القسم نفسه ومعلوماتهم طرية مقارنة به الذي غادر الدراسة منذ ما يقارب من العشر سنوات التي سببت له جفاف المعلومات، ووضع في موقف محرج.. وشاءت الصدف ان يلتقي بزميله (كريم) عند رواق الجامعة. توثقت علاقته به بشكل سريع وبعمق وكان شابا له من اسمه عالي النصيب لم يبخل عليه بأية معلومة وكان عامل ضبط لحياته الدراسية الجديدة، بدأ من ايجار السكن الى المراجعة اليومية للمحاضرات التي يأخذونها توا ثم يبدأ هو بإعادتها لتجد طريقها الى الموقع البعيد من ذاكرته التي أصبحت نشطة بعد تمرينها.

لم يكتفِ بما يحصله من زميله بل سعى ان يكثف من مراجعته للمحاضرات للدراسة الأولية ليغذي ذاكرته بما

تحتاج اليه، وكان يتأخر ايام العطل ومن ضمنها يوم الجمعة التي يتمتع بها زملاؤه بين عوائلهم ليثري معلوماته العلمية.

وفي ليلة حمقاء كانت السماء تشتعل بضو القذائق والصواريخ وكانوا يختفون تحت سلم الدار وهو يمسك كتابه ويناجي الله والاوصياء ان تمر هذه الحادثة على خير..كانت الهجمة المباغته له بعد ان طرد ارهاصات ومخلفات الحرب دون رجعة من ذهنه.

انهمك بدراسته اليومية بإسناد رائع من زميله (كريم) فكان يسترخي ساعة واحدة بعد الغداء وساعتين ليلا وكان هذا منهاجا طيلة الفصل الاول، مما توشح على سيماه الجهد الممزوج بنحافة البدن.. وجاءت النتيجة غير مرضية في الفصل الاول، ولكنه كسب وِدْ واعجاب رئيس القسم (د. فاضل كمونه) الذي أبلغه انه كان طالبا متميزاً مع إشادة بعض أساتذته علناً خاصة (د. علي عجام) وهذا ما أكدته نتائج الفصل الثاني لكنه اصطدم بفقدان ثلاثة

من زملائه لم تتوفر الفرصة لهم لتجاوز المرحلة، وجاء الجانب العملي وحظي بزميله (بهجت) الذي يملك خبرة عالية بمشروعه ونشر بحثاً علمياً ضمن هذا الاتجاه فكان عونا كبيرا له وفّرَ عليه من الوقت الكافي فكان مصدرا ناطقا له مما أنهى مشروعه مبكرا قبل زملائه.

ومن ذكر الجميل في تلك المدة القاسية، للدكتور(كاظم عبدالامير) رئيس قسم علوم الحياة في حيينها، رجل صاحب شخصية اجتماعية وعلمية مميزة، ابدى له كل انواع المساعدة بود خالص، نابعة من طيبة خاطر، لم يأبه لشيء رغم الظروف المشحونة في البيئة الجامعية، كان رديفا مع مشرفه الاستاذ الدكتور(طارق عبدالكاظم) مما سجلا ومضة سخية في مسيرته العلمية.

أنهى دراسته العليا بعد حصوله على درجة الماجستير في الكيمياء وعاد الى الخدمة العسكرية لتكملة ما مطلوب منه، ومارس اختصاصه في وحدة المختبرات في مستشفى(الناصرية العسكري) فضلاً عن تكليفه بمنصب

مساعد مدير المستشفى الذي قضّى فيه ما يقارب من السنة وفيها ذكرى مؤلمة، هو الهجوم اللئيم من قبل التحالف الدولي في عام 1991، وفي ليلة كان هدفهم الجسر السريع في مدينة الناصرية، والمحاذي للمستشفى استخدم فيها العدو اطناناً من القاذفات الثقيلة، وكان هو ومن معه يتأرجحون في البناية مع كل ضربة صاروخية على الجسر، مما جعل كل من في المستشفى يغادرونه باستعجال، الا هو وبعض الممرضين الخيرين الذين كان بمعيتهم عدد من المرضى الراقدين في المستشفى محدودي الحركة، اقترح عليهم بنقلهم الى الضفة الاخرى من نهر الفرات الى الموقع البديل خشية قصف المستشفى. وهم يسعون الى نقل مرضاهم يكرر العدو القصف الهمجي على الجسر الذي يكون المستشفى ضمن مدى تأثيره. كان الوضع صعباً جداً لنقل تسعة عشر مريضاً تحت وطأة قصف شرس عانده الشباب بقلوب مؤمنة رغم الظلام الشديد كانوا يستدلون طريقهم الى الزورق عند النهر على

ضوء انفجار القنابل. ثم تسرح نهائيا من الجيش ليلتحق بمدرسته التي غادرها قبل عشر سنوات.

(3)

المرأةُ تاج الصبر

بدء حصار التسعينيات من القرن المنصرم الذي فرضته القوى الظلام العالمية على شعب ليس له يد في كل ماحصل ولكن الذي جرى ليس اعتباطاً او ردة فعل آنية لما حدث بل كان ضمن مسلسل مخطط له سابقاً..أثار الرعب في شعب ودمر كل مخزوناته حتى افترس أبدان الكثير من أبنائه، كان يتألم بصمت واصبحت احوال الناس مثيرة للرثاء فقد تحول بعضهم من شخص وسيم وانيق الى انسان مرسوم على وجهه حالة الاحباط بعد ان عجز مايوفره لعائلته كالسابق. والاكثر ايلاما خاصةً عندما يلاحظ ذلك الحصار كيف غرز أنيابه بلؤم مقيت في جلود تلاميذه وزملائه من المدرسين الذين انهكتهم اعباؤه حتى

بان على محياهم وهيئتهم...لجأ بعضهم الى بيع كل مايباع من سقوف الدار او اي شيء يجده غير ذي حاجة حتى اصبح الحصار مصلوباً على ابواب ديارهم وهم ينظرون له بضبابية لايدركون من يخلصهم من شبح الموت.

في تلك السنين العقيمة سجلت المراة ملحمة من الصبر والتحدي وتحملت العبأ الاكبر في درء غول الحصار وهذا ليس جديدا فكانت امراة النبي ايوب نافسته في الصبر بل لم تُبلغْ برفع المحنة عن زوجها الا بعد حين. بدت البيوت خاوية من المؤن موحشة تفتقر الى مايضمن قوت الغد..هو لم يسلم من شرّهِ وكاد ان يفقد بصيرته حتى انبرت زوجته واعلنت حينها عنادها وبإصرار المؤمنين ان تلجم الحصار الكافر بمعايير دقيقة نسجتها بدراية لكي لا تحسّهُ بالعوز وينال من شخصيته او تضعف، ولم تخذله في يوم ما فكانت سندا قويا له تحملت العبء الأكبر بروح يملأها الايمان وضمير استمد نقاؤه من عمق عائلتها الاصيلة..

اتّبعت الكثير من قوانين الترشيد ومناهج الاحتياط حتى لا يُبين عليهم شظف العيش المر فكانت تعمل من البيضة الواحدة وجبة تملأ عين الناظر بعد اضافة كميه من الدقيق لتنال رضا اطفالها وأشباع اعينهم على الاقل..هنا اصبح التوافق وتدبير الامور لابد منها لاتحتمل التردد او الاهمال بل تضافرت جهودهما ليعبروا المحنه بسلام فكانت المعيشة متصالحة معهما، وهم يعيلون اربعة أطفال...وللانصاف كان والده الذي يسكن الريف بين فتره واخرى يزودهم وحسب المواسم بالدقيق الاسمر والتمر وكمية من مشتقات الحليب التي اصبحت هذه المواد شحيحة في المدينة او لم ينلها غير اصحاب الاموال.

الفصل السادس عشر

ردُّ الجميل

(1)

تمرّ الايام بثقل كبير عليه اكثر مما ينبغي وبدأ يشعر بملل من رتابة العمل اليومي في مدرسته الأم (متوسطة البعث)...التقى مصادفةً بمدرسه في الاعدادية (المشرف محمد مهدي) وهو شخصية مرموقة في المؤسسة التعليمية تبادل معه الحديث بودّ كعادته وفهم منه ان يكون مديراً لمتوسطة الشطرة...انها متوسطة عريقة تخرج منها ملاكات مهمة تبوأت مناصب علمية وأجتماعية داخل المدينة وخارجها..بنتها شركة انكليزية في الخمسينيات على وفق معايير دولية..وافق على مضض خشية أنْ تأخذهُ الايامُ وتثبط اندفاعهِ لتحقيق حلمهِ. استمر مديرا لها لمدة اربع سنوات(1992–1996)..كانت تجربة فريدة لكونها اول عمل اداري مدني له ليختبر فيها امكانياته وما يؤمن

به ضمن الصيغ التربوية الطموحة أضافة الى انها فرصة محببة يستغلها يخدم ابناء مدينتهِ.

وقف اول يوم امام واجهتها وركز في نظره على القطعة الخشبية المدون عليها اسم وتأريخ المدرسة وشعارها الذي خطه (ماجد النجار) بخط الرقعة(ربي زدني علما)..نعم اخذت منها السنين مأخذها ولكن بريق احرفها كما هي..ثم دلف من خلال بابها الواسع المصنوع من الخشب من نوع(الجندل) المقاوم لاعتى الظروف الى باحة مستطيلة الشكل من جانبها الايمن يأخذك الى ادارة المدرسة ومقابلك، باب واسع تستقبلك منه قاعة كبيرة يواجهك فيها المسرح الذي احتضن عدداً من المسرحيات حين كان طالبا فيها ومنها مسرحية (المسامير)، ثم انحرف يسارا بدرجة 90 عبر ممر واسع يطل على الساحة الرئيسة للمدرسة..وبالتفاته خفيفة لليسار اخذ يتمعن النظر على اللوحات المعلقة على باب كل صف من البناية التي اخذت صفوفها حرف(أل) باللغة الانكليزية في تشكيلها..تقدم بخطوات قصيرة نحو اول الصفوف القريبة

من ادارة المدرسة وكان يشير الى الصف الاول شعبة (أ) ثم تجاوزه الى شعبة(ب) وتنهد بعمق انها قاعته الدراسية ..أخذ يقلب صفحات الماضي وكانت ذاكرته متصالحه معه وبدأ يسترجع شريط السنين وهو يحدد جلوس زملائه من اول مقعد الى نهاية القاعة الدراسية..هنا مقعد صالح نعيم المشاغب الذي سبب بعقوبة جماعية لكل طلاب الصف بعد ان جلب الديدان من حديقة المدرسة ونثرها في ممرات القاعة..وبدأت هذه الحشرات تتحرك دون هدى احدثت فوضى وجلبة داخل القاعة حال دخول مدرس المادة الذي اسرع بابلاغ مدير المدرسة(عبدالامير عيسى) الذي كان صارماً وهو بدوره اخذ نصيبه من تلك العقوبة لم يكن سبباً فيها وكانت عقوبة سيد فالح(استشهد في الحرب) قاسية رغم كل الاعذار والتوسل..وهناك مقعد عبدالامير كولي مراقب الشعبة الذي استشهد بصاروخ احمق من العدوان الغاشم من قبل الامريكان ابان حرب الخليج الثانية وهو يؤدي واجبه في قاعدة الامام علي...وهنا على الجانب الايمن الملاصق للحائط مقعده الدراسي قبله

حمودي واوية وخلفه احمد زويد اللذان كان يتعاقد معهما بروح المزاح ان يسرب لهما بعض الاجوبة في الامتحانات مقابل شراء بعض الحلوى من حانوت المدرسة..ومقاعد آخرى لطالب السنجري وعطشان وفريد وصبيح وقصي سعودي وباسم فليح وعلي عويد وكان عددها لايتجاوز الاربع والثلاثين..كان في تنافس شديد بينه وبين ابن عمه جبار(الذي استشهد ابان ذات الحرب) وصل حدته عندما اخذ درجة اعلى منه في امتحان الكيمياء مما اثار انزعاجه وحنقه كونه يمتلك ذكاءً عالياً.

وهو غارق في تلك الذكريات المؤلمة قاطعه احد المدرسين قائلاً : انها الدنيا ياتي يوماً نستذكر هذه الايام بشغف فنحن نعدها على امل افضل وهي لم تكترث بل ساخرة منا.

اجتهد مع زملائهِ في المدرسة ان يتعاونوا على سقي فسائل المستقبل وتعضيدها وهم طلاب يافعون ودفعهم نحو الابتكار والتجديد وكشف قابلياتهم وميولهم وتوجهاتهم

ومواصلة الاهتمام بأسس المعرفة والمهارات تمهيداً للمرحلة التالية...ليس هذا فقط لانه من صلب واجبهم ..ولكنهم في حينها كانوا يعيشون قساوة الحصار وبؤسه..كان يلقي نكده بضراوة على الجميع ..وقد يعُذر في حينها من اهّتزت عنده الحسنى..وكان يخشى ان يصيبهم أمر يحيدهم عن شرف المهنة..ولكن تباً له فقد فاق صمودهم وجلدهم عنجهيته الشرسة بيقين المؤمنين ..وكان يفتخر بانه لم تسجل اية مثلمة تستقر في جوانحهم غير الفضيلة وحسن التصرف.

كان تعاون اهل مدينته يثير الدهشة وليس غريباً على مجتمع مدينه الشطرة ..فهم ينهلون من اصالة الماضي ويستنشقون عبق التاريخ من اجدادهم السومريين والاكديين.

في احد المواسم الدراسية لم تحظَ المدرسة بمدرس اللغة الانكليزية وبقت المادة شاغرة لمدة شهر والمراجع لم تلبِ طلبها..فانتفضت شابة متخرجة تواً (وسن عبدالله) من

عائلة يشار لها بالكرم والعفة..تبرعت ان تدرس المادة بدون أجر متحملةً مشاكسة الطلبه المراهقين وجهد التدريس..واضافة مع زملائها الذين لم يبخلوا اي شيء بكل ماهو جميل كي تظهر مدرستهم بسمعة يشيد بها الجميع..كان حريصا على زملائه لان العمل الذي يؤدونه شاقٌ رغم نقص الغذاء في تلك السنين الهوجاء وهو يتالم حين يصغي الى تضجرهم من ضيق اليد ورواتبهم التي لم تكفِ مدة اسبوع ..احدهم يهمس له بانه حلى الشاي بحبات تمر والاخر يخبره خلو بيته من مادة الطحين..انها مشكلة معقدة لايستطيع تجاوزها وهو نفسه معلن استنفاراً في بيته بسبب ذات الظروف.

اثقلته في تلك الظروف الفتن العشائرية وما اكثرها، وخاصة (الثأر العشائري) فلم يستثنى منه بل كان صيدا سهلا لمن يطلبه في المدينة، لان التحشد في الريف يجعل عجز الاخرين من نيل مطلبهم من عمومته. انبرى حينها رجل ذو شخصية مهابة ونية طيبة هو(الحاج فرج الجابري)، تربطه باسلافه ود جميل، كثيرا مايتحدث عنه،

مما دفعه ان يخشى عليه من تصرف عبثي نكاية بعمومته الذين يسكنون الريف لاي مثلمة تحدث، فكان يحذره او ينبه حال سماع اي من الاخبار السيئة الواردة من الريف، وكان جميل يجهل الاهتمام به بهذا العطف كبير، وهو يتسائل سرا، هل كانت سجيته التي جبلت بها نفسه على عمل الخير، ام وفاءً لاجداده التي تربطه معهم حالة وئام او قربى.

برغم لؤم تلك السنين فانه يتلذذ بذكرياتها عندما يتواصل معه احد طلابه من تلك الفترة وهو يكيل له بالمديح لينفض عنه جور الايام وبؤسها.. كان وفيا لمدينته واهلها..لم ينبسوا ببنت شفة مايعكر صفاء الود بينهما غير الخير والوفاء...,وهذا يتوافق مع شعر الامام الشافعي..

إيّاكَ تَجْني سُكَّراً مِنْ حَنْظَلٍ.. فَالشَّيْءُ يَرْجعُ بالمذاقِ لأَصْلِهِ

فِي الجَوَّ مَكْتُوْبٌ عَلَى صُحُفِ الهَوَى..مَنْ يَعْمَلِ المَعْرُوْفَ يُجْزَ بِمِثْلِهِ

(2)

الموت لايتغير أبداً

زاره والده شكل مفاجئ، بعد التحاقه الى متوسطة الشطرة مديراً.. ووجده يمسك عصا تستخدم لردع التصرفات العبثية من الطلاب وهم في مرحلة المراهقة، وضحك بصوت عالٍ لمنظره في موقفٍ يجهل مغزاه في حينها، ولكنه خَجِلَ منه معاهداً نفسه ان لا يحملها بعد اليوم اطلاقا.

في نهاية تلك السنة، مَرِضَ والده ولم يعرف الاسباب في حينها ولكن تحليلات الدم تشير الى التهاب قوي تجاوز الحدود المعقولة... في كل يوم بدأت تُخور قواه وكان الاطباء في مدينته يحجمون عن اخباره بما يُعاني من مرض وما تؤول إليه التحليلات، وبدا والده يفقد كثيراً من حركته حتى ذهب به الى بغداد ليراجع احد الاطباء الاختصاص بأمراض الدماغ، وبعد اخذ الاشعة الخاصة

تبين لديه ورم، ولكن لم يوضح له الطبيب نوعه، وأمر بإدخاله المستشفى وكان برفقته يتوسد يديه ليلا بجنب سريره على الارض وفي اليوم الثالث صباحا حضر الطبيب يتفقد مرضاه واستفسر منه ان والده لم يشتهِ الطعام وكان رده صادما:(هل تريد من مريض السرطان ان يأكل)؟!..

أحس برجليه بعدم قدرتهما على تحمّله، فجلس وهو ينظر الى الرجل الذي عاش معه اربعين عاماً وهو يسترجع رجاءه من الله (سبحانه وتعالى) وهو في مقتبل العمر لانه كان وحيدا؛ (ان يبقي له والده الى سن الأربعين) وهو العمر الذي يتكامل فيه الرجل وكأن الله استجاب لهُ، وندم بعدها لو كان طلب منه الى اكثر من ذلك.

راجع الطبيب مساءً في عيادته وعاتبه على رده غير الانساني، وفعلا اعتذر الطبيب والمفترض ان يستدرج في اخباره واوجز في شرح حالة والده؛ انه في حالة متقدمة من

المرض ونصحه ان يعود به الى بيته وهو يردد عبارة:(يحيي العظام وهي رميم).

في كل يوم كانت شمس نيسان الصافية تقذف لهبا ينهي دوامه قاصداً مرآب السيارات القريب من مدرسته لتكون واجهته مدينة الغراف التي تبعد خمسة عشر كيلو متر ومنها تقله مركبه عامه الى قريته بمسافة عشرة كيلو مترات ليطمئن على صحة والده واحس برغبته ان يكون قريباً منه مما اخذ يعتصره الالم الشديد في كل مرة متواجد عنده ولم يستطع ان يقدم له الا الدعاء الى الله ان يلطف عليه برحمته.. في الشهر الاول كان متواصلا معه كل يوم ولكن في الايام التالية احس بأجهاد كبير مما جعله يتواصل معه بين يوم ويوم..وأخر مرة حضر لزيارته يوم الثلاثاء مساءً وجلس بجانبه وحرك رجليه ويديه واذا بأبيه يشير بسبابته ليس بكرى بل بعدها لم يفهمها جميل في حينها ولكنه يفهم سجايا ابيه قد يشير الى تعاطفه معه لما يعانيه من تعب التنقل..كان المعتاد ان يزور اباه الخميس ولكنه اجلها الى يوم الجمعة صباحا..وفي الساعة الخامسة

عصراً اتصل به احد اقربائه من مدينة الغراف عبر الهاتف الارضي وهو يردد(البقاء لله) ..كان وقعها ثقيلا عليه وادرك حينها اشارة ابوه له (انها وقت الرحيل الى المقام الآبدي).

الموت الذي تعاقد معه طويلا يوماً بعد يوم وهو في احضانه عندما كان في الخدمة العسكرية لثمانِ سنوات حرب دون أن يشتكي مرّة منه. ولكنه بعد انتهاء الحرب كان مقلاً مقارنةً بتلك السنوات ولكنه هو الموت لايتغير فلايكتفي منه وأصرّ على أن يلاحقه فكان هوساً اصابه ليل نهار وكاد يسمعه ويقول أنا لم اتغيرْ ابداً وكأنه ساعي بريد يستلم رسائله في كل ساعه لفترة ثلاثة اشهر(مرض أباه) ليخبره بفقدان اعز انسان بحياته.

فقدان والده أثّرَ فيه كثيراً، إذ خلّف له أخوَين رائعين(محمد وحمزه)، وخمس أخوات من أُمه الثانية، وأحسَّ انه يشغل مكان أبيهم، وأكبرهم أخته التي اتمَّ وصية أبيه بتزويجها الى أقاربه.

(3)

تلاقي الارواح

على الرغم من انه لا يُعدُّ من الرجال العبثيين بل غلبت عليه الجدية التي فرضتها عليه بيئته ووضعه الاجتماعي، ولكن شاء القدر ان يصوغ باتقان حكاية ود صدفةً لم يكنْ ينتظهرها او يبحث عنها(رب صدفةٍ خير من ألف ميعاد) بل كانت احلى من الف ميعاد..نعم كانت ابهى وامتع صدفةٍ في حينها..كأنه سمع هاتفا وهو يستقر في مقعده خلف قائد المركبة العامة التي استقلها من بيته قاصداً مركز المدينة..انظرْ يمينك..استرقَ نظرةً بريئةً بتكلف لانه يتطلب منه انحراف قد يثير الشك..طالعها بحذر وطالعته بخجل.. امراة يعلو سيماءها خجل انثوي مثير ولكن يؤطره وشاح حزن غير ظاهر المعالم..اذهلته وبعثرت فيه وقاره..ردد في نفسه..هذه ليست مثل كل النساء؛ التقيا تحت سحابة مصادفةً قد تكون غيثاً خير او حصيب

سوء..وكأنهما في تلك اللحظات عقدوا التوافق بين روحيهما..ومرت الايام واذنت الظروف ان يلتقيا باجواء عامة واستنتج من حديثها المبطن كانت تراقبه عن كثب، ودرست شخصيته وحاولت ان تلفت انتباهه لها بأسلوب رقيق غير مباشر من خلال ذكر خصاله وسجاياه التي لم يصارحه بها أحد سابقا وكأنما منحته صدمة انعاش حفزته ان يلتفت الى حاله..

وتمر الايام ويكثر الحديث وشجونه بينهما حتى اصبحت قبلته فكانت عاقلة تعي ما تقول، حكيمة في تصرفاتها، هادئة في طباعها، كل يوم تعطيه مصل مناعة ليقارع الحياة، فحسسته بقوة شخصيته التي كان يجهلها وأناقته التي لم يُشرْ لها احد وكشفت فيه اشياء لم يدركها، وأصبح هو حلمها الذي تنتظر تحقيقه، وكانت له شهد الحياة يسمع منها أجمل عبارات المديح، مرة تثني عليه لكل عمل تجده مرضياً، واخرى تحذره من آخر يجهله وهي تتحرى أخباره بكل تفاصيلها دون ان تحسسه بدافع الغيرة، فأصبحت مرآته النقية بدون شائبة.. إنها المرأة الحلم..

كان غارقا ببحر هواها دون ان يرسي على ميناء وجدها، كان حباً نظيفاً نقياً شفافاً.. صاحبة منطق، متصالحة مع أيامها.. كان بكل أسف، لم يدرك بعض أحاديثها ولم يفهم مغزى كلامها أحيانا عندما يتبادلان الحديث العذب الذي لم يكن ينتهي في اي لقاء، ولكن حفرته تلك الأيام بذاكرته دون اهماله وخاصةً عندما شحت عليه السنون التوالي ان تمنحه صديقة مثل تلك المرأة الحسناء.. كانت جنة يقطف منها ما تشتهي النفس، تغذيه ما طاب من رحيق أزهار السعادة، وتنفث له أريجاً يُعَطّر كلماتها التي تهدئ من خاطره..

لم يَمَل يوماً من أحاديثها التي يصغي إليها كتلميذ تولّعَ بمعلمته.. لها ابتسامة كطلوع الشمس عند صباح ربيعي ممزوج بخجل صبيه قروية عندما تجبرهم السبل ان يلتقيا عن بعد حتى يكاد ان يسهو حديثه اذا كان متكلماً، او ينهار صمته عندما يكون مصغياً..

انها لقطة ملائكيه تتكرر عندما يتقاطعان الطريق صدفةً وما أكثرها.. كان يَعدُّ ملحمةً تنافس قصص مشاهير الحب، لو باح كل منهما بما يختزنه.. كَتَما ودّهما العميق برباطة جأش عالية فكانت هي ضابطة بأدق الامور، ومتفهمة لمكنوناته وتدرك تماماً ما يسعده فتتصرف بدراية تجعله رائقا تُقطِر عليه عسل التواصل، لتمنحه الهدوء كلما احست بجفاف جوانحه..

لم تقطع وصاله كأنه أحد فرائضها.. رحل عنها على مضض ليس شقاوةً ولا تعمداً ولكن لديه مشروع رَسَمَهُ من بعيد ولابد ان يسعى لتحقيقه، وحذرته في حينها انه سوف يفقد كثيراً من أحبته وقد يأخذ نصيبه من اغنية رضا العبدالله الحزينة:

(الملح والزاد ماغزر ولافاد..خلاني العزيز وسكن بغداد) ..

عندما شحّت الأيام وانقطع التواصل بينهما، ارتبكت عنده الموازين واكفهرت في وجهه الايام.. كاد أن يكون طفلاً فُطِمَ في غير أوانه.. أنه فقد تلك الأيام كأنها لحظات

بل كان حالما واستيقظ وأراد ان يكمل حلمه فاصطدم بواقعه وعزاؤه الوحيد ان يكمل مشروعه ليهديه لها.

حُرِمَ من ايامه تلك ولكن من الانصاف ان يعترف لها.. بأنها كانت طاقته الوجدانية في كل عمل ناجح على أمل ان يلتقيها او أن تسمع عنه ليقول لها: انتِ من تشحذين الهمة بي في كل ما انجزه وهو يردد في ذاته انها تعلم، ولكن كبرياءها تمنعها ان تعلن درايتها وهي تتوافق مع اغنية ام كلثوم (وعزّة نفسي منعاني).. انها الايام وحماقتها ان تُقَطّع تواصلهما.

حاول اكثر من مرة ان يتناسى ولكن علاقته بها كانت الاكثر اكتمالاً ونضجاً واكثر ثقةً وعمقاً من بقية النساء وهو يقول في سرهِ ..هل كان حباً ادعاءً او كان اكذوبةً...وليس يدري هل احبته اقل مايستحق او هو غالى بحبها اكثر مما ينبغي. لم يدرك تماماً ان نكد الايام تسحق ذلك الود الجميل. وحاول ان يعيد جسر التواصل ولكنها لم تأبه بذلك...وأوهم نفسه ان ينعتها بالقاسية وهذا لايشكل

شيئاً في طبيعتها..او يشعر احياناً لم يعرفها يوماً فقد تختلط عليه مشاعره فتنهار قناعاته القديمة...وهو يأمل ان تمنحه فرصة ود جديده لتفسر له طريقه المعتم التي اجبرته على السير فيه..عسى ان تدرك كيف تتلاعب امراة برجل دون ان تخشى للحظة مما تفعله نحوه رغم ماكان يحمله من رقة المشاعر في نفسه نحوها..هل تعلم انها كانت ملكة احلامه..ليجعلها تستذكر ماكان يعجبها فيه.. فكانت دقيقة التعبير رغم خجلها..وهي ترد ..لاتقلْ ذلك ياصاحبي؛ بل قلْ مايجذبني فيك..فيتلعثم بأحياء ويصغي لها..احب فيك وسامتك فأحياناً تتوافق الروح مع المظهر..وعيناك اقرأ فيها صدق المشاعر..وطولك يجعلني ارفع رأسي عند الحديث معك..صوتك الهاديء استرخي معه من همومي... ومن ذلك ادركَ انها همسات قلبه التي تلح عليهِ ان يبقى بنشوة الانتظار رغم ماينبئهُ عقله بأنه لايليق بسنوات حب طويلة والطريق له وعر وقد تشوه اعماقه وهو على عتبة آخر العمر. وقد يختمها.. الشخص الذي تحبه هو ليس الذي تشعر بوجوده بل الذي تفتقده..

فتلاقي الارواح للمحبين عن بعد انها حقيقة.. فزليخة عندما عشقت نبينا يوسف طلبت من حارس السجن الموجود في نفس القصر بعد ان اشتاقت لصوته وهي ممنوعه من رؤيته ان يجلده لكي تسمع صوته فاخبر يوسف بان يظهر صوته متالما والحارس يضرب الارض.. ارسلت عليه وقالت انت لم تجلده فقال لها كيف عرفتِ..ردت عليه لو جلدته لتألمت انا..فجلد يوسف ولم يصرخ فصاحت عليه ان يكف عن جلده لتألمها.. قد تلح عليه روحه وهي تتوق الى ذكراها ولكن ليس على ما اهتدى اليه (همنغواي – أغنيس فون كورفيسكي) الذي بقى عقوداً طويلة يتذكر حبه الاول الذي لم يتكلل بالنجاح لذلك لم يجد حلاً لنسيانه سوى اطلاق رصاصة على راسه..ولكنه غير ذلك يريد ان يجعل من ذكراه لها حشد قواه لترميم ماجرفته الايام وثلمته غول السنين .

الفصل السابع عشر

(1)

الطريق الى منصة العلم

كثيراً ماتحدث سريّاً مع نفسهِ ...وهو يستذكر معاناته في طفولتهِ وما تلاها..وأخذ يستدرك تلك الفترة المهمة في حياة الانسان وما يكتسبه من خبرات متراكمة تخلق شخصيته وتنير بصيرته وتزيد من ابتئاسهِ قد يصل مرتبة الحزن العميق لانهُ عاش في قرية اطبق عليها الفقر مخالبه واسدلت على بيئتها العزلة تماما الا بوابة المدرسة وكانت غير كافية لإنها كانت مختصرة على الكتابه والقراءة واذا بادر احد معلميها بافكار لم يُستجبْ لها.. لان عقولهم الباطنة مليئة بقصص الواعظين كما ينعتها الدكتور (علي الوردي) وتقاليد البيئة الريفية..

اليوم غير الامس..اذا كانت سابقا لاحيلة له ..الان حاصل على درجة علمية (ماستر في علم الكيمياء التحليلية).. وهي باكورة عمل تتوافق مع طموحه المشروع.

وفي حينها سادت في المجتمع ظواهر الخطابات السياسية الرتيبة علنا والمواعظ المتدينة سراً واصبحت مدينته الجميلة مزدحمة بمتاريس حربية بين شارع وشارع كأنها على ابواب حرب...كان ذلك في رأيه سخفاً مملاً لم يتصور الخلاص منه. دأب يفكر بمليه..ان الحلم الكبير يحتاج الى قرار حكيم ومما شجعه..زاره مدير التربية في احد الايام وهمس في اذنه (لاتغرك الادارة.. عجل في اكمال حلمك).. كلمات كانت وقعها مؤثراً في حينها.

من خلال تواجده في المدرسة سنوياً يقدم أوراقه للانتقال الى أحد المؤسسات التابعة الى وزارة التعليم العالي والبحث العلمي. واجراءات النقل من وزارة التربية الى تلك الوزارة ليست سهلة بل بعد موافقة دائرته التي في سنةٍ سابقة اعتذرت من رفع طلبه الى وزارة التربية ولكن هذه السنة

استغل نصيحة مدير التربية على الاقل يضمن موافقة مديرية التربية العائد لها...جرّبَ حظّه وبدأ بإجراءات النقل من مدرسته مرورا بموافقة مديرية تربيته.

بات مترددا بل يائسا حد القنوط ليس تحليلاً بل كل المعلومات التي حصل عليها لم تشجعه لانه لم يعلمْ ان اي من اصحاب الشهادات حصل على نقل من وزارة التربية تحديداً..فشدَّ من أزره بقلب مؤمن وصبر فلاح..وتيقن ان الله مع اصحاب القلوب النقية...نهض مبكراً في صباح اليوم الثالث من شهر حزيران عام(1996) وكان يتشاءم من هذا الشهر بالذات ولكن دعاء زوجته التي رافقته حتى باب الدار وبقراءة أيات من القرآن استقر جنانه واهدأ قلقه.

وصل المدينة التي تغزل بها كثيرا والتي منحته اول درجة علمية وله فيها ذكرياته..تنهد بحسرة وهو يردد في نفسه..هل اكون من سكنة هذه المدينة التاريخية(بغداد).

أجر سيارة واشار الى سائقها وجهته الى وزارة التربيه وتمنى ان يطول الطريق ليستأنس بمعالم هذه المدينة ويؤخر من تلقي صدمة الخبر غير المريح. ترجّل من السيارة وصعد الى واجهة الوزارة عبر درجات قليلة تعثر باحدها نحو باب زجاجي جزؤه الايمن مفتوح دخل منه ثم دلف الى اليمين عبر ممر مزدحم وتطلع الى علامات الاستدلال وتوجه صوب غرفة صغيرة تشير انها استعلامات الوزارة وفيها شاب لطيف اخذ منه الصلع ثلثي شعر راسه وبجنبه شابه عيناها تكثران اللقاء بعينيه وكان يغافل الشاب احياناً ويصيد نظرة من وجهها الباسم ليتحرى مايدور بخلدهم وهم يصغون لطلبه عسى يجد مايهدأ به خاطره(علم بعدما توثقت علاقته بهم انها زوجته).. وأخبره الشاب وهو متضجر ان الوزارة لم تروج مثل هذه الطلبات سابقاً، إلا ان جميل لم ينقطع رجاؤه من رعاية الله وهو يحمل في صدره حلماً كبيراً اختزنه عبر تلك السنين، لكن الشاب استدرك كلامه في تلك اللحظة وقد غلبت على مسحته طيبة تدفق منها صوت عطوف ليطْمئن خاطره:

(سوف نعمل الواجب والله الموفق) وأعطوه موعداً اسبوعا بعد تسلمه كتابه. راح يجر اذيالا من الحزن والتعب خلف ظهره وكانت قدماه تدوس الارض بقسوة كقسوة الحياة عليه.

عاد الى بغداد وحسب الموعد وفي راسهِ تتزاحم افكار اغلبها تنذر بخيبة امل..اقترب من غرفة الاستعلامات بتمهل واخذ نفساً عميقاً لأنتظار مايحمد عقباه، وأدى تحية صباحية خجولة للموظف الشاب وكان وحده هذه المرة، وشاح بنظره عليه وتمعن بوجهه وهو ينتظر خبراً منه على الاغلب يكون سيئاً، فتذكره وهزّ برأسه لم يعرف فحواها، ولكن تعابير وجهه تعطي المقابل الأمل، وصعد بهدوء الى الطابق الثاني وهو جامد في مكانه ويرى في مُخيّلته صوراً من الياس قد يخذله الرجل..وهو يخبره لم تحصل موافقة الوزير او يتسلم أمراً مزعجا لا يستسيغه وكان ينتظر وهو شارد الذهن محاولاً بكل ما أوتيّ من قوة ان يستقر، ولكن قدميه لم توافقاه مع مرور الزمن واسند بدنه على جدران الاستعلامات من الخارج وهو يشيح بنظره نحو باب

المصعد، وفجأة فُتِحَ بابه واقبل منه الرجل مُحمر الوجه مبتسما رافعا يده اليمنى وهي ماسكة على ورقة رسميه ليقترب منه ويمدُّ يده بعد ان انتزع منها الورقة ليصافحه بشدة ويصحبه الى مقعده ويطلعه على تهميش الوزير باللون الاحمر:(موافق على ان تروّج مثل هذه الطلبات في المستقبل) معقبا عليه هذا اول طلب يتم الموافقة عليه، ولاطفه على سجيته.. انها بشائر خير فكان يوما فاصلا في حياته الدراسية..اتجه الى الشارع اشبه بهرولة كان شعاع الشمس قاسيا اوقف سيارة اجرة وركب التاكسي وجلس بجانب السائق وكان رجلاً متوسط العمر ويشغل احدى ألآيات القرآنية بصوت الشيخ عبدالباسط..انها صدفةً ايمانية محببه. اراد السائق خفض صوت الراديو فطلب منه ان يبقيه كما كان، فراق له كلامه واستجاب لطلبه..واستمر جميل في حديثه ليبرر له طلبه ان هذه السورة بشرى خير(سورة الضحى..أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ..) فرد السائق بكل وقار..ان الله لاينسى عبده...فرد عليه لك

الصحة ودوام العمر إن شاء الله.. بعد وصوله الى مرآب النهضة متوجها الى مدينته لتشاركه عائلته بالخبر المبهج.

(2)

المشوار الصعب

زوّدَ بكتابٍ عنوانه وزارة التعليم العالي، وكانت تلك اللحظة اكثر اللحظات نشوةً محاولاً التحرر من الحمل الثقيل الذي جثم على اكتافه طيلة تلك الفترة وهذا لم يستمر طويلاً حتى بدأ فصل آخر من الإجراءات غير المضمونه عواقبها واخذ يُحّدث نفسه.. لابد من خوضها وخاصة اذا كانت الجهة العاصمة (بغداد) التي كانت أمنيته الذهبية التي يروم تحقيقها، الا أن فيها اجراءات خاصة ومحدودة جداً؛ أولها تأييد احصاء (1957) وهذا لايملكه.

ترجّل من سيارة التاكسي ومرَّ من الباب الرئيس للوزارة وانحرف يمينا واشار له الدليل المعني على الكابينة المختصة بوجهته وأعلمه الموظف الموجود، أسم الموظفة المعنية ورقم الطابق، وتوجه صوب المصعد الكهربائي الذي توقف في الطابق السابع، واستفسر عن الموظفة التي حفظ اسمها من الاستعلامات، وكانت معروفة من الجميع..تهدَّى بمشيته نحو غرفتها وكانت شابة نحيفة ودودة لبقة تتحرك بين سجلاتها المنظمة بحرفة على مساحة غرفتها المعطرة بالياسمين، وكان هو متوجساً بل متردداً ان يسألها خشية وقوعه في المحظور، وبعد القاء التحية عليها انساب كلامُها رقيقاً هادئاً يطمْئن المقابل بسماعه: (تفضل استاذ) وخرجت كلماته مبعثرة، واستدركت الموقف بلطف: (انك تقصد نقل الى وزارة التعليم العالي) فأجابها الان بوضوح هو مقصده وسلّمَ كتابه ولكن بأضطراب كأنما ينتظر شيئاً سيئاً سيحدث وبأسلوبها لمّاح أخذت تهون من أمره بكلمات(لاتحمل همْ ياستاذ)،.. واطّلعت عليه بتأنٍّ وطلبت منه ان يأتي بالموافقة من

الجامعة المستنصرية التي يرغب في الالتحاق إليها بعد ان زودته بكتاب يتضمن ذلك ووعدته خيرا واخبرته انها تعمل قصارى جهدها.

استعاد رباطة جأشه مردداً بصمت: (اول الغيث قَطْرُ).. متوجها صوب الجامعة المستنصرية. اختياره لهذه الجامعة ليس اعتباطاً بل كان ترغيبا من احد زملائه وفيها مجمع سكني للتدريسين قد يجد ضالته فيه وكان محقاً لانه يعلم أزمة السكن في مثل هذه المدن الكبيرة علاوة انها عاصمة البلاد عليها اقبال كبير من المحافظات وخاصة في فترة الحصار طلباً للرزق.

تذكر انه سمع صوت الأذان وهو في مقر وزارة التعليم فانتبه الى ساعته فكانت تشير الى ان الوقت لم يسعفه لمراجعة الجامعة فغير وجهته الى مدينة الكاظمية ليبدد من حالة الحنق التي احس بها تطبق على انفاسه فلابد من زيارة الامام موسى الكاظم لتنال روحه السكينة بعد يوم مرهق ومشحون بأشياء لأول مره يسبر غورها.

كانت ليلة مريحة نوعما قضاها في احد الفنادق القريبة جداً من مرقد الامام ولو لاقى بعض المنغصات فكان الفندق يفتقر لوسائل التبريد في الغرف لقدمه وانقطاع التيار الكهربائي تماشيا مع ظرف البلد انذاك...فسطح الفندق هو المنتجع المحبب للمسافرين. جاء وقت المنام..استلقى جميل على سرير قديم من حديد في احد زوايا السطح يطلق صوتا مزعجاً عند اي حركه عندما يريد ان يقلب بدنه مما جعله حذرا في كل حركة تفاديا لاصدار صوت يخرق الهدوء الذي كان سائدا ويخشى امتعاض المسافرين القريبين منه..رغم تعبه كان غير مطمئن للفراش والوساده ولحسن حظه ان زوجته دست له باصرار منشفة وخاولي(منشفة صغيرة) في حقيبة سفره دون رغبته لانه لم يحتسب المبيت..فجعل الخاولي على الوسادة والمنشفة غطى بها الفراش..خلد الى النوم متاخرا واستيقظ على صوت الاذان وحرص ان يصلي صلاة الفجر في مرقد الامام وهذه اول مرة يحظى بهذه البركة وكانها اشارة ربانية لحجب كل وسواس قد يتعرض له.

في صباح اول يوم من شهر تموز توجه الى مرآب السيارات واخذ مقعده بين الركاب في سيارة نوع(كيا) اوصلته الى باب المعظم واستفسر من سائق المركبة عن المركبات التي تقله الى الجامعة المستنصرية فأومأ له على السيارات التي تتوجه الى حي اور او حي جميلة يكون مرورهن بجنب مبتغاه..اخذ بنصيحة الرجل واشار على سائق السيارة المتوجه الى حي جميلة وعند الوصول الى الجامعة توقفت المركبة عند الموقف المخصص فترجل وكان الباب الرئيس للجامعة قريبا جدا.

(3)

في اروقة الجامعة

تعد الجامعة المستنصرية امتداداً علميا وتربويا وثقافيا للمدرسه المستنصريه التي اسسها الخليفة العباسي المستنصر بالله سنة 1233م واستمدتِ الجامعة اسمها منها.

اعجاب جميل بهذا الصرح الجامعي ليس مفاجئا بل كان يسكن قريبا منه عند دراسته الجامعية الاولية وحضر مع زملائه عدة حفلات كانت تتميز فيها هذه الجامعة.

اقبل متوجها صوب الرصيف الملون بمحاذاة الباب الرئيس للجامعة الواسع وهو يتطلع لمعالمها الخارجية التي توحي للناظر انها تتنفس فعلا عبق تاريخ اسلافها..حال الولوج من الباب الامامي تقع عينيك مباشرة على زخرفة ملونه باشكال هندسية جميلة من الخزف والسيراميك مستوحاة من التراث الاسلامي يكرر فيها اسم الجامعة بخط مميز تطرز الواجهة الامامية للجامعة...ويوصل الباب الى الواجهة ممر واسع ارضيته مرتبه بعناية من(الشتايكر الملون يتناوب بين الاحمر القاتم والرمادي الفاتح)على جانبه الايمن مجموعة من الحدائق الصغيرة على شكل دوائر كلٌ منها تكتظ بانواع من الزهور بعضها تنفث عطرا مميزا..اما الجانب الايسر بساط اخضر من الحشيش الصيني يمتد الى السياج الخارجي المتاخم

للطريق العام. هذا المنظر يبهر الزائر ويمنحه توافقاً محبباً ويشعره انه في صرح علمي مهيب.

تجاوز كل ذلك وانحرف يمينا ثم يسارا مرة اخرى وصعد سلما وسلم كتابه، واشار عليه موظف ان ينتظر قليلا ليفتي المسؤول بطلبه...ابلغه الموظف لابد ان يحظر لجنة اختبار صلاحية التدريس برئاسة مساعد رئيس الجامعة التي تجتمع بعد خمسة عشر يوما..اختنقت انفاسه انها فترة غير قصيرة ولكن لابد الانتظار فعاد الى بيته على امل الحضور عند الموعد المحدد.

حضر للجامعة في اليوم والوقت المحددين عند قاعة كبيرة واعضاء اللجنة(بعد سنوات اصبح احد اعضائها) يحتلون المقاعد الامامية يتوسطهم مساعد رئيس الجامعة لفت انتباهه..كان رجلا وقورا مكتنز البدن، فارضاً وقاره على الاخرين، يصغى الجميع عند تدخلاته التي كانت قليلة..كان تسلسله للاختبار ثانيا..جمع معلومات عن ماهية الاسئلة التي تطرح من اعضاء اللجنة وكان محورها

رسالة الماستر للمتقدم وهذا كان مطئناً له وتبقى قناعتهم بشخصيته والقائه وثقته كلها محط انظار اللجنة...قدم ملخصاً عن رسالته وذكر من خلال حديثه كانت نتائجه متميزه (عالميا)..مما اثارت حنق احد اعضاء اللجنه(الذي اصبح بعد ذلك صديقا له)الذي انبرى باعتراض شديد اللهجة(وبسخرية يطلب منه التواضع)..اول وهلة صدم وارتبك لانه لم يدرك مقصده ولكن تدخل مساعد رئيس الجامعة مخاطبا له(لاتغمط حقه هذا رايه)..اعطاه فرصة للدفاع عن نتائجه ووثوقه بها وباشارة من رئيس اللجنة تم انهاء الاختبار. وبعد اسبوع كانت نتيجته مرضية وتجاوز الاختبار..

زودْ بكتاب الى كلية العلوم التي كانت مبتغاه..كليه رصينه تضم مِلاكات علمية مشهوداً لها بالنزاهه والبحث العلمي والتأليف..مما تلبي طموحه في تحقيق حلمه لينال درجة الدكتوراه التي حرم منها..سار في نفس الممر المتواصل من الباب الرئيس اتجاة كلية العلوم مرورا ببناية كلية الاداب على اليمين وبناية كلية التربية على اليسار ثم

واجهه في نهاية الممر لافتة تشير الى مختبرات قسم الكيمياء..توقف هنيهة وتنفس بعمق وعيناه مسمرتان على يافظة..الكيمياء هذا الاسم اختزن في عمق ذاكرته واهتمامه من سنين متراكمه حفر في ذاته رغبة شديدة ان يغور بمكنوناته ليشبع اندفاعه او على الاقل يختبر سبب دوافعه اتجاه حلمه الكبير..سبقت قدمه من ارض الممر الى فضاء مكشوف قبل نظره معاندة تداركه للموقف فالتوت قليلا اصابته بالم مبرح لم يشفَ قبل اسبوع. توجه الى عمادة كلية العلوم من خلال بابها ثم الى فناء واسع ابصر من بعد لوحة استدل منها الى عميد الكلية. عرض كتاب رئاسة الجامعه على سكرتيرة عميد الكلية(ام بلال)..شابة رشيقة البدن والحديث متفائلة تجبر المقابل ان يتوافق معها ورحبت به بكلمات احس فيها انه ضيف كريم واستماحت منه العذر ان ينتظر قليلا حتى ينهي العميد مكالمته.. بعد لحظات استدعاه العميد(د. رعد المصلح) مرحبا به واشار عليه بالجلوس وهو يتصفح فايله ثم أبدى حاجته لاختصاصه بلطف عزز ثقته بنفسه وعلق على

كتابه الى قسم الكيمياء بيان حاجته وتمت اجراءت الموافقة من القسم الى العمادة واخيرا الى رئاسة الجامعة التي ضمنتة حاجة الكلية لاختصاصه التي بدورها خاطبت وزارة التعليم العالي.

الفصل الثامن عشر

(1)

القرار الاخير

عاد مسرورا الى الموظفة نفسها في مقر وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، وأعطته موعدا قريبا يتسلم فيه كتاب الموافقة الى وزارة التربية التي اوعزت لدوائرها المعنية ارسال ملف اولياته لتصدر له كتاب موافقة الوزارة على تعيينه في الجامعة المستنصرية التي بدورها اصدرت تعيينه في كلية العلوم.

باشر في قسم الكيمياء عند بدء العام الدراسي الجديد،(1996/9/6) كان يوماً مشهوداً ومميزاً في حياته.

بدأ طور جديد في مسيرته العلمية والاجتماعية وفرضت عليه مهام مجهدة اضافية..الان بعيد عن عائلته وبنفس الوقت لابد ان يتهيأ لتعزيز قدراته العلمية ليكون تدريسيا متوافقاً مع وضعه الجديد..انه بناء معقد يكتنفه غموض

معتم ليس الهدف بل الوسائل المتاحة شاقة التحقيق..وبين الاماني والواقع هو التدبير والسعي والكد.. عنوان كل ذلك هو التوكل على الله الذي ينجيك من الغم ويبعدك عن الهم..ان التسلح بالايمان وروح التحدي تقيك من السقوط المدوي حتى لو كنت تترنح من هول عاتيات الزمن.

بدأ أولى خطواته ان يوفر سكناً في القسم الداخلي وهو مُسر بهذا وأخذ يبحث عن أوراق تؤيد سكنه في بغداد او بطاقة تموينية ليلحق عائلته اليه، وحاول بكل الوسائل ان يقتنيها ولكن بدون جدوى لانه ليس لديه مايثبت انه من سكنة بغداد وكان الحصول عليها بمثابة المستحيل بعينه نتيجة التشديد بازائها من المراجع العليا.

(2)

الخبر المشؤوم

ذكر الدكتور علي الوردي ليس للانسان يد فيما ناله من نجاح في اي نشاط بل هو نتاج البيئة الاجتماعية (وعَاظ السلاطين)..الان جميل قد نال جزءاً مما يحلم به لم يكن

نتاجاً طبيعياً خلقته الظروف مجانا فكان طريقه شاقا قطع فيه اميالا من التفكير والالحاح والاقدام سبيلٌ للنجاح.
والظاهر ان الفرحة لم تدم طويلا كما يقول المثل السائر..فقد ذهبت السكرة وجاءت الفكرة.. فعاندته بشراسة تلك الظروف البيئية وخاصةً عندما جاء اتصال من ست (أرادن) من رئاسة الجامعة المستنصرية بان يراجع الموظفة التي يعرفها في مقر وزارة التعليم العالي على وجه السرعة لتكملة بعض النواقص والا يلغى نقله.. وهو يردد بصمت..الغاء؟..خبر صاعق.

ثَقُل جسمه وتصبب بدنه عرقاً وخارت قواه.. كان الامر مرعباً لم يتحمله لأنه يعني ببساطة العودة الى مدرسته، وفي رأسه شتى التساؤلات: كيف يقنع اصدقاءه وزملاءه وأهله دون ان يلصق فيه اكثر من علامة شك؟. وعادت ذاكرته الى ماطرحه الدكتور علي الوردي..اين يصرفها هذه المحنة التي يجهل ماهيتها..هل يثق بقول (جبران خليل جبران) بقوله (فلن يُهزم شخصٌ يؤمن بنفسه)..لديه مقدار من الثقة وهل هي كافية ان تغير

مايجري..كان مذهولا وهو سائر في الممر وجهته خارج الجامعة، التقى به احد اصدقائه (فاخر من مدينته) فأخذ يكظم سوء الخبر وحاول ان يرحب به ولكن ليس كما هو معتاد.

توجه الى زيارة مرقد الإمام موسى الكاظم (ع) مصدوما وقلقا صارا يتلاشيان عنه كلما اقترب الى احد الابواب الرئيسة للمرقد يدعى (باب القبلة) ثم الضريح عبر رواق طويل ودعا دعاءً طويلا الى الله ان يُجبر خاطره ويسهل أمره ويجد لهُ مخرجاً من عسره.

حضر مبكراً في اليوم التالي أَمام الموظفة المعنبة ويزداد قلقه كلما دنا من مكتبها وهناك خواء شديد قد شل تفكيره لقتامة الموقف ولكن لابد من مواجهته بعزم وبصبر القرويين وتقدم نحوها وادى تحية الصباح وكان غير ماتوقع منها بادلته التحية غير مكترثة للامر كثير مما اهدأ من روعه وبادرته متأسفه انها أخطأت في اجراءات

تعيينه.. لابد ان يُملي استمارة الموافقة الأمنية الخاصة بالنقل الى بغداد تحديدا..

نعم انها بغداد..كما كان يتوقع ليس سهلا ان ينتمي الى هذه المدينة..سلمته الاستمارة بكل رقة وعيناه متعلقه على محياها ليفسر مايوحي من اسارير وجهها..كانت طبيعية وكأنها ادركت قلقه مما حاولت تبدد عنه وشائج الخوف المرسوم بوجوم على جبهته.

ملأها بتأنٍ مستعيناً ببعض نصائحها وسلمها حيث تكتنف تفكيرة حيرة غامضة كأنه طالب فوجيء باسئلة غير متاكد من اجابتها. غادر الوزارة بائساً تماماً لانه في انتظار امرٍ مبهم يجهله..توجه الى اخ زوجته(الشيخ محمد السنجري) يطلب منه النصيحة كونه بصيراً مجربا واوضح له فقرات الاستمارة واجاباته عليها، وامتعض من اجابته على فقرة (هل لديك سكن) بكلا.. ونصحه ان يعود في اليوم التالي ليصحح تلك الفقرة ،وفعلا كان صائبا فيما

اقترحه لأنها كانت (فيصليه) عند المراجع العليا في القبول او الرفض.

(3)

احلى البشائر

كان ينام قليلا ويحلم كثيرا مع كل لحظة يغلق عينية .. هل تذهب مع ابخرة الاوهام ماسعى لتحقيقه؟.. او يستمر بشقائه دون تحقيق رغبته؟..او قد يفقد بهجة ماانجزه وينحدر نحو كآبة مدمرة... كلها اسئلة تتزاحم في ذهنه باحثا عن نفسه. ولكن يستدرك اخيرا عسى ان يشاء ربه ان يمنحه فرصة مايفكر به؟..كان هذا امله وآخر عزائه..لينال ثمرة جهده بتوفيق ألهي وليس باجتهاد شخصي..كان كل يوم ينتظر اتصالا وهو لم ينفك عن الدعاء(يامن اتيت بعرش بلقيس آتني بخبر يسعدني).

وفي آخر أيام شهر ايلول، اتصلت به الموظفة نفسها التي يتواصل معها تلفونيا بين تارة واخرى..واستمع لصوتها وهو مذهول التفكير..انها لحظة حرجة فاصلة بين ان

يستمر ماجاء لأجله او ينهزم منكسرا..ولكنها باسلوب رقيق تبارك له وتهديه الموافقة على نقله...غادر كليته وهو مندهش لم يصدق ماسمعه وهو يحدث نفسه..هل هو هذا الضوء في نهاية النفق المظلم..حمدا لله.. واسرع سالكا نفس الممر اتجاه باب الجامعة ولكن الان بشعور من الزهو.. كانت لحظة نسجت ذكراها على فيصل العمر، وكانه يعلن في حينها وداعا للشقاء..تباً للاوهام..خاصةً عندما اطّلعَ على مضمون كتاب الموافقة.. كان كتاباً صريحاً تعدى توقعه في محتواه.. لم يستطع كتمان فرحه..وكال الشكر الجزيل لتلك الشابة الرائعة الطيبة على تعاطفها الانساني معه..

انها بشرى إلهية بعد ان انقطعت به كل السبل لينال ما يُثبِت سكنه في بغداد كمواطن اصلي يتمتع ببطاقة سكن والبطاقة التموينية بشكليهما الرسمييَن.

الفصل التاسع عشر

(1)

الوقوع في شرك المتزلفين بالدين

الارادة تدفعك الى سلوك طريق الكفاح .. وقد يكون هذا الطريق وعراً صعباً وعليك ان تخوض غماره.. ويقينا النتائج الكبيرة تحتاج الى جهد يرتقي الى مستوى التضحية وهذا لايمكن ان تتحمل أعباءها اذا لم تتحلَّ بروح التحدي حتى تحقيقها. كان تفكيره مشتتا بين عائلته التي خلفها في سكنه القديم ووضعه الحالي الذي لايحسد علية.. فلابد ان يتخذ خطوات جريئة وهو يتسابق مع الزمن..أنها محنة اخرى تحتاج الى تنقل مكوكي بين بغداد ومدينته..تم التشاور مع زوجته على كيفية تصريف الامور وهي غير مريحة..ولكنهما اتخذا قراراً صارماً..استجمع قواه واخذ يتردد على مكاتب بيع العقارات في مدينته حتى توافق مع شاب موثوق على شراء داره واتفقا على السعر والمدة

الزمنية لتنفيذ اتفاق البيع.. كان يدرك ان هذا الاجراء معقد ولكن لابد منه..الان هو في بغداد مدينة غير منسجمة الاحياء بعضها يسكنها عالي الدخل واخرى متفاوته..وقرر التجوال في شوارعها مرات عديدة ومزامير السيارات تفتق الأذن كالمعتاد بمدينة مكتظة السكان ..جال الشوارع وهو غير مطمئن وشارد الذهن عن كل مايضايقه..اسدل التفكير ببعضها واخذ يبحث في الاحياء المتوسطة او اقل من ذلك وكان في وقتها الاسعار تتسابق مع الزمن وهي باضطراد متزايد...واخذ يوميا يتوسط الشوارع ويحدق بالدور وهو متوتر الاعصاب اعتاد على ذلك اياما منذ طلوع الشمس حتى الغسق وفي راسه تطوف احلامه في العثور على سكن تليق به وبقدر امكانياته وكان غارقا في الياس والملل بين غلاء الاسعار وعدم امتلاكه احصاء 1957 يسمح له بتسجل العقار باسمه...أُرهق كثيرا ذلك اليوم واردف عائدا الى مسكنه بعد ان اتفق على موعد في اليوم التالي تلفونيا مع احد اقربائه.. واخذ قسطا وفيرا من النوم العميق في غرفته الكائنة في احد الاقسام الداخلية

وهو يغرق في غمار حلم بعيد المنال..وفي صباح رائق قام من مكانهِ بشيء من النشاط واحلامه رأفت بحاله تلك الليلة لم يؤرق منامه ويثير شجونه ويبدو ان السماء التفتت الى مطلبه وكأن الاطمئنان سكن قلبه هذه المرة وهو على موعد مع احد من اصحاب مكاتب العقار يصله بقرابة دم اصطحبه الى دار متوسطة ذات طابق واحد وردد في سره (انفرجت المحنة..ياغيث اتى ليسقي ارض قلبي من ظمأ السنين) وتواعد مع اقاربه الى مساء ذلك اليوم مع صاحب الدار وهو بروحٍ مطمئنة...تم اللقاء في نفس الدار واتفقوا على السعر الذي اخبره به اقاربه مسبقا ولكن تم رفع السعر بمبلغ اضافي فاحتج على ذلك ولكن اقاربه نصحه بالموافقه واذعن لنصيحته وكظم غضبه.. في يوم اخذ اقاربه يطالب البائع باجور الدلالة وتبين ان المبلغ الاضافي كان باتفاق معه كاجور اضافة الى ماأخذهُ من جميل..اكثر الناس لايرون السيئة لابسة رداءهم بل يستعيرون رداء المصلح المرشد .. واقاربه نموذج سيء من هذا النوع يتشدق بالحسنى ويوحي للاخرين انه انسان

ورع يمتلك روح التقوى والتدين مما اوقع جميل قي شباك ثقته المزعومة وتخيله شريفا امينا فالسارق يعتقد كل الناس لصوصاً فهو يعتقد ان تصرفه الغادر مشروع في سلوك مهنته..بدات اجراءت البيع وهنا لابد ان يسجل العقار باسم شخص لديه احصاء 1957 فوقع اختياره على شخص من معارفه كان يرافقه الى زيارة الامام الكاظم ويؤدي مراسم الزيارة زحفاً على يديه ليغريه انه انسان تقيّ موثوق به مما نال ثقته المطلقة واعتبره من اتباع الاولياء الصالحين فاطمأن له وسجل العقار باسمه.. وكان الربيع يدنو نحوهم ويغادر الشتاء بخجل لانه لم يكن كما كان يصقع الارض ويحذره البشر..استقر في العاصمة بعد جهد كبير لان الانتقال بين المحافظات تكتنفه اجراءات معقدة ويتطلب مراجعات كثيرة لنقل اطفاله الذين كانو في مراحل دراسية مختلفة وزوجته التي كانت موظفة في وزارة التربية...

كل ذلك الجهد والمشقة لم يُبارح حلمه البعيد ان يُقدم الى دراسة الدكتوراه، وكان قرارا صعبا فقد يقصّر اتجاه

عائلته ومعيشتهم ولكن قراره لارجعة منه حتى لو كان يقطع من رزق اطفاله ليحقق هدفه فكلمايعمله سيكون لصالح عائلته.. وتم قبوله في العام القادم، وكان في مقدمة التدريسيين الذين اقتحموا معقل الدراسات العليا من بين زملائه الذين كانت غير مشجعة لظروف الحصار اللئيم الذي جار على الناس مما جعل الاخرين من زملائه يقررون الالتحاق به للسنوات التالية.

كان الفصل الاول كابوساً مقيتاً عليه كما في دراسة الماجستير لالتحاقه المتأخر جدا بعد انقطاع ما يقرب من عشر سنوات، وكانت مشكلته مادة الكيمياء العضوية .

في احد الايام فوجيء باللجنه يصاحبها الشاب الذي سجل باسمه العقار يرومون حجزه لغرض خاص به..اثار سخطه وزجر اللجنة ولاذ الشاب بالصمت وغادرت اللجنه دون تحقيق مآربها، واخبر دائرة التسجيل العقاري في حينها ليتاكد من صلاحية العقار وليمنعوا اي اجراء بخصوصه لحين انتهاء الكورس الاول من الدراسة.

وهنا نستذكر ماجاء به العلامة علي الوردي في كتابه(وعاظ السلاطين) بل كان محقا عندما ذكر(ان عامة الناس يلجاون الى حيلة الازدواج الشخصي...فنجدهم تقمصوا شخصيتين مختلفتين احداهما تصغي لما ينصح به الواعظون ثم تتشدق به والاخرى تندفع وراء مايروق في اعين الناس من مال او جاه او اعتبار).

ان الشخصيتين اللتيَن المحنا اليهما هما صيد هذه الحيلة يرومون فيه التزلف او جذب الاخرين نحو حبال شباك غايتهم لتحقيق شيئ في نفوسهم المريضة. ولايخفي جميل انه عانى من الم الغدر وعدم الامانة ليس فقط من هاتين الشخصيتين بل صادف العديد مثلهما بل اكثر ايلاما حتى اهتزت في جوانحه الثقة بكل من يدعي بالتديّن والتهجد والذين يقضون اغلب اوقاتهم بالتعبد والتسبيح وما اكثرهم وقد تستفحل هذه الظاهرة وتعد من المسلمات في المجتمع والعجز من علاجها.

وياتي النقيض ممن مرّ علينا فحسن الظن بالاخرين هي سمة انسانية جبل عليها كثير من الخيرين وقد يكون افضل من سوء الظن بهم فابطال الخير يفعلونه بصمت دون تهليل او ضجيج فاذا اهداك القدر احدهم وتتوثق علاقتك به فقد يكون انيس دربك ونعمة من الله ساقها لك.

فلايمكن أن نقيس عمر الصداقة والعشرة بين الناس بالسنين بل مااستودع الله في قلوبهم من العطاء وما تشع منه النفس البشرية من عوامل الحياة وتفاعلها..انبرى في تلك الظروف رجل(د.محمد خليفة) بين كل ماتعرف عليهم في محيطه الجديد بعد ان تفهم ظرفه القاسي ومعاناته حتى انتفض بدون منة بل اذهله اندفاعه المحموم وتبنيه مشكلته لحصوله سكن في المجمع السكني التابع للجامعة، وكان شابا لبقا محبوبا لدى الجميع واسع العلاقات مسموع الراي والحجة لدى اصحاب القرار وتابع اجراءات السكن بكل خطواته..انها ارادة إلهية لتعزز ثقته بالله وبالاخرين بعد أن كاد يفقدها من تصرف ثلة من المتحذلقين بالدين.

تم الحصول على دار سكنية في المجمع السكني التابع للجامعة المستنصرية وكانت فرصة ذهبية للتخلص من العقار وبيعه ..وفعلا تم بيعه واصر الشاب ان يمتنع من تحويل العقار الا ببديل مالي.

في هذه المرة الذاكرة لم تطاوعه برضا كما كان مما تطلب منه جهداً استثنائياً، وبعد الانتهاء من الاختبارات النهائية للكورس الاول همس له (د. صلاح) بأنه تجاوز الفصل الاول، ولابد من تعزيز معدله في الفصل الثاني.. كان خبرا سعيدا لتحقيق نتيجة مرضية لم يتخلف عن زملائه وهذا عزز اندفاعه وتاكد انه قادرٌ على الاستمرار بثبات اتجاه حلمه. أيقن ان اللحظات الجميلة التي تهدى له لم ينسَ سيدها، نعم.. د.صلاح دَوّن بصمة جميلة على ذاكرته لاتغادرها. وتجاوز الكورس الثاني بحرية غير ما كان في الفصل الاول المرهق.

(2)

العلمُ حارسٌ وصديقٌ

العلماء ورثة الانبياء كما يقولون، والعلم هو ارث ينتفع منه حتى الاموات كحسنة دائمة وللاحياء حارس امين يصون القلب من خطر المعاصي بقدر ثقته بوحدانية الله.

يتعين على طالب الدكتوراه ان يجتاز امتحانا تحريريا وشفويا شاملا لجميع مواد الدراسة في كافة المراحل.. وهذا النهج خليط من النظام المتبع في كل من امريكا وانكلترا..

المثير في هذا الاختبار ليس له ضوابط محدده بل يعتمد على سياسة الكلية العلمية...ولن تدون درجاته بقدر ماهو اعطاء اذن للتسجيل على مشروع البحث لاطروحة الدكتوراه. يبذل الطالب جهداً ثقيلاً ويتنقل بين المواد المختلفه بدون هدى الا احيانا يتسامح استاذ احد المواد

باعطاء توضيح عام للمواد التي يتمحور حولها الاختبار.. وهذا كان نادراً.

تهيأ للامتحان الشامل وكان صعبا لعدد مواده وكثرة مصادره مما يجعل الطالب ينتقل بين المبادئ والنظريات والمعقد والسهل ومن دون حدود.

انها تجربة عسيرة ولكن من يجتازها تصقل مواهبه وتزيد من معرفته لتجعله مهيأً ان يبحر في غور الابحاث ليحقق ما يكافأ عليه لينال درجة الدكتوراه.

تعلمنا منذ الصغر ان العلم في الرأس وبعدها مادّوْنَ في دفاتر الكراس وهذا لم يجنَ منه الا مايصل للناس.. وقد يكون قاصرا الا مايتم تحقيقه بالمراس والتجربة وهنا ياتي دور البحث العلمي. كان موضوع بحثه غير ما متوقع فكان مغزاه (اثبات هجرة المواد النفطية من مكامنها باتجاه سطح التربة ومن خلال تحليل الترب السطحية للمكونات العضوية واللاعضوية يتحقق من تواجد مكامن نفطية او عدمها).

وهذا الموضوع له قصة كما اخبره مشرفه الدكتور احمد عبدالجبار، عند زيارة احد لجان التفتيش المكلفة بالبحث عن الاسلحة المحرمة في العراق تبادل حديثاً علمياً مع احدهم عن الاستكشافات النفطية في جنوب السودان وكانت الشركة المكلفة انذاك المانية.. وحدثت في حينها اضطرابات مسلحة بقيادة جون قرنق زعيم الحركة الشعبية لتحرير السودان في بداية السبعينيات وبتحريض من الولايات المتحدة...سارعت الشركة الالمانية باتباع طريقة سريعة للتحري عن المكامن النفطية في تلك البقاع عن طريق تحليل الترب السطحية ومقارنتها مع الصور الجوية لتعطي دراسة عن المواقع المهمة لتواجد التراكمات النفطية انه مشروع مُكّلف مادياً ويحتاج الى مستلزمات تحليلية باهظة الثمن، ولم يحاول اي باحث سابقا تناول اي جزء منه.

بعد البحث والتحري عن بحوث سابقة عثر على بحثين لكل من (د. حسين الشهرستاني) و(د. محمد عطية) وكانت ومضة في عتبة بحثه..كان البحثان عبارة عن

طريقة تحليلية جديدة لتهيئة نموذج نفطي على شكل كبسولة وبسيل من الإلكترونات عالية التعجيل لعمقين من نفس المكمن النفطي لمنطقة كركوك.

عندما التقى بـ (د. محمد) نصحهُ بالعدول عن الموضوع لأنهُ تم قياس عنصر الكلور لمنطقة البصرة.. كان تركيزه عند السطح يفوق ما تحتويه المكامن ولم يعطِ السبب، ولكن أخيراً عُرِفِ السبب.

مرةً أخرى مشرفه الثاني(د احمد) كان هو الآخر مثبطاً لعزيمته، لأنه غير متأكد من نجاح المشروع وهو كان على صواب لان البحث كان مجهولا. ولسبب غريب لم يسع تكهنه كأن شيئاً في صدره يهتف انه على يقين ان في خبايا هذا المشروع شيئاً جديدا سيغير من حياته العلمية..

بذل جهداً كبيراً للحصول على المصادر ضمن هذا المنحى وتواصل مع بعض الأكاديميات الاجنبية خاصة من (كندا).. وأعلموه ان البحوث التي أرادها رزِمت له ولكن لم تخرج لان بلده مشمول بالحصار العلمي.

راجع مع مشرفه الثاني الى الجهة التي تزودهم بنماذج مختلفة لأحد الآبار بعمق (300م) كما كان يتضمن كتاب الطاقة الذرية/مديرية الكيمياء والمستحضرات الطبية، فاعترض مدير القسم المعني ان هذا العمق قد يكون عمق بئر ماء فاستدرك (جميل) بنباهته ان العمق المقصود هو(3000م) وهذا خطأ مطبعي.. هَزَّ مدير القسم رأسه مُبدياً علامة الرضا واوصى بتزويدهم بكميات محدودة من النماذج التي كانت قطعاً صخرية وفُتات وسائل النفط.

كانت عمليات التحليل وطرق فصلها وتهيئتها الى التحليل معقده وكان عملاً شاقا من خلال التنقل بين دائرة الطاقة الذرية واقسام وزارة النفط. عمل لمدة ستة اشهر لفصل المكونات النفطية بواسطة جهاز (كروماتوغرافيا الغاز)[13]حتى بدت ملامح أول إشارة لفصل المكونات

(13) الكروماتوغرافيا الغازية أو التفريق اللوني الغازي أحد أنواع الفصل الكيميائي وهي وسيلة في الكيمياء التحليلية لفصل وتحليل تركيبة المواد التي لها خاصية التطاير أي يمكن أن تتبخر بدون أن تتحلل، مثل المواد العضوية..

(الأروماتية)[14] التي كانت بوابة نجاح البحث ثم توالت نتائج مفرحة اخرى. اخذ الجانب البحثي منه قسطاً كبيراً من راحته ومن رزق عائلته، ولكن وقوف مشرفه (د. أحمد عبدالجبار شنشل)[15] الى جانبه ودعمه ماديا ومعنويا ساهم بشكل فاعل في انجاز بحثه وبدرجة امتياز وكُرّمَ من قبل وزارة التعليم العالي بمكافئة مادية وعُدّت اطروحته عملا ابداعيا مميزا.

(14) عبارة عن مركبات كيميائية نفطية أيضاً بالعطريات وأفضل الأمثلة هي التولوين، والبنزين

(15) احد العلماء العراقيين الذين ساهموا ببناء العراق (وهو نجل الشخصية العسكرية العراقية الاسطورة الفريق الاول الركن عبدالجبار شنشل وزير الدفاع الاسبق) والمشرف على اطروحته لنيل شهادة الدكتوراه

(3)

الحلم ..بين التمني والتطبيق

عندما يخطط الانسان في تحقيق امنيته التي تراوده من سنين فالخطوات الاولى هي اصعب المراحل لتحقيقها.. وفي هذا المضمار واجه اشد العقبات ومنها المادية وتوفير الفرصة للانخراط بتكملة مابدأ به...وان الحلم لم يمكنْ تحقيقه اذا مايتسلح الانسان بالاصرار والاقدام وتكون اهدافه واضحة المعالم ويطمح في تحقيقها باقصر الطرق واقل زمنا. بقي حلمه الأول يراوده وياتي كمسلسل تلفزيوني بين المتعة في حين والملل في حين آخر فهذا الحلم زاره اول مرة وهو في قريته النائية في جنوب العراق ثم في مرحلة المتوسطة وحين تجرأ وحكى لابيه لم يصغِ إليه فلجأ الى امه وحكى لها انه يحلم ليصبح كاقأربها فقرأت في وجههِ بعض الأيات القرأنية لتهدئة ولكنها لم تكترث كثيرا.

انهى السنة الاولى في تدريس مادة الكيمياء التحليلية، احس بزهو كبير وهو يرتدي معطف المختبر الذي يتناغم

مع اختصاصه الجديد وكرس جهده للبحث عن التميز كما آلت اليه اطروحته في نيل درجة الدكتواره ويأخذ منحى يشبع رغبته في البحث والتأليف، اللذين هما محور التعليم العالي، كانت هذه السنه تجربته الاولى التي تجاوزها بنجاح. وفي السنه الثانية اختير مقررا لقسم الكيمياء مع تدريسه مادة التحليل الآلي للمرحلة الرابعة، كان موضوعا شائقاً اضاف له شيئاً جديداً وتوسع أفقه العلمي مما أهله ان يشرف على طالب ماجستير في التحليل الصيدلاني.

(4)

الأم.. سُلَّم التواصل مع السماء

الام..دفء في ليالي تشرين ونسيم عذب في قيلولة تموز شذا عطرها ينعش النفس ويهدى الخاطر..الام يتفوه الثغر بها عند الصغر ويلوذ من مكر الايام بدعائها عند الكبر..انها ملاك الرحمة يتقرب بها الى الله ببرها.. هي شفاء للقلب عند ارتباكه ومسكٌن للنفس عند

هياجها..هي..هي الحسنى في الدنيا ورضاها مغفرة عند الآخرة..

كان متواصلا مع والدته بدون انقطاع..وكأنما بريد ان يعوضها على ماعانته في حياتها من اجلهم.. صبرت كثيرا حتى جزع الصبر منها وهي مستقرة مطمئنة..الان هي اصبحت اميرة لكثير من الاولاد والبنات واحفادها الذين تجاوز عددهم الثلاثين ..

في نهاية شهر كانون الثاني من عام 2003 اتصل بوالدته تلفونيا والتي كانت تعاني من مرض القلب وسالها (هل تحتاجين ماما شيئاً ..ردت عليه لم تقصر بشيء ياولدي وادعو لك بالخير دائماً) كانت اخر لحظة يسمع بها الصوت الملائكي الذي اعتاد عليه طيلة خمسين عاما..فقدا أُخبر بعد ايام قليلة بوفاتها(1-2-2003). احضر خالته من بغداد واستقبل الجنازة في مدينة النجف واشرف على دفنها وحضر مراسم الفاتحة في مدينة سوق الشيوخ. انها خسارة كبيرة في حياته لانه فقد قلبا رحوما

يدعو له على الاقل خمس مرات يوميا ان يبعد عنه شيطنة الايام وما لاتلحظه العيون كان دعاؤها معوذة تطرد نحس السنين وتبعد شرها..كان فقدانها كشف عنه الحصانه الالهية وماكان يدرأ عنه التائهات المارقات ويبقى يتوسل لها ان لاتنساه وهي ضيف عند رب كريم وكلما يمر بضيق يتوجه لها ان تتوسل عنده ان يلطف بحاله حتى يلتحق بها عسى ان يمنحه اللقاء بها.

وبعد شهرين من وفاتها شُلّت الحياة في الفصل الدراسي الثاني من تلك العام باحتلال بلاده.

الفصل العشرون

(1)

العاصفة السوداء

في ليلة كان تواجده في الجامعة مع بعض التدريسيين وعند منتصف الليل غادر (د. فلاح) و(د. رمزي) ثم تبعهم مع رئيس الجامعة (د. رياض الدباغ) عبر حدائق كلية العلوم ويسارا عبر الممر الطويل للجامعة المستنصرية، وقبل الوصول الى الباب الخارجي انحرف (د. رياض) يساراً وشيّعهُ بان هذه ليلة ليلاء قدّرها انها الاخيرة وتوجه الى ممر قصير باتجاه باب جانبي مقابل بيته المخصص لسكن رئيس الجامعة، وعندها لم يلتقيا بعدها ابدا. أما هو فقد تابع سيره، بخطوات عجلة وخرج من الباب الامامي عبر ساحة ثم دخل المرآب الرئيس متوجها صوب سيارته من نوع (كراون سوبر) ياباني الصنع والتي كانت الوحيدة المركونة فيه وابنه في داخلها باسترخاء تام على المقاعد

الخلفية غارقا في نوم عميق لكنه استيقظ على صوت محرك السيارة.

خرج من المرآب وداهمته موجة من الغم وهو مذهول لما راى تلك المدينه الصاخبة موحشة تماما وسار بحذر شديد تحسباً لاي طاريء من قِبَل أية سيطرة لذئاب الاحتلال وبعد ان وجد الشوارع خالية من اية حركة واعمدة الانارة معطلة والليل كان معتما تبدده مصابيح مركبته فاستقل الطريق العام شرقا عبر جسر القناة، واتجه يسارا الى مجمع الأساتذة الكائن في حي (البنوك) وفوجئ بصديقه (د. رمزي) بانتظاره وهو يقف على الرصيف عند باب داره، ليطمئن عليه خشيةً من المجهول.

في اليوم التالي كانت الشوارع مقفرة والمحال مغلقة والكهرباء صمتت بعد ان كانت تتعثر بين حين وآخر والناس في ريبة خشية القتل والتسليب وجاءت اخبار عن انتشار الجرائم. ومما ازعجه واغضبه منظر الجنود الامريكان والمدرعات في اماكن رمزية في العاصمة بغداد

مثل نصب الشهيد والمساجد والحسينيات والاماكن التراثية وكانت اهانة مقصودة وليست حسابات ميدانية.. واصبحت الارصفة متخمة بالنفايات وحتى المساحات الخضراء بعد ان نهشها الحصار الظالم اخذت تئنّ من ركام الاتربة والاوساخ لاهمالها والخراب يتفاقم يوماً بعد يوم.

بدأت مجموعات بشرية كالجراد تتسارع وبدون هدى تهاجم المحلات والشركات والدوائر الحكوميه والمنشآت وسلبها ونهبها علنا وباشراف الامريكان ماعدا وزارة النفط.. ولم تسلم منهم حتى الجامعات فقد فتحت ابوابها الى كل من هب ودب..واحد الايام شاهد عربة يجرها حمار يقودها شاب خارج من قسم الفيزياء في كليته حاملا اجهزة علمية يجهلها واعترضه احد زملائه ومنعه من التعرض له خشية من المجهول..انها مأساة حقيقية شعب تنهب امواله بتفويضات لم ينزل بها الله من سلطان ولم تتوقف عند هذا الحد بل توجهت مجموعة الى توزيع المساحات امام البيوت في المجمع السكني ويتناقشون فيما بينهم بان يتركوا مترا واحدا امام كل بيت..انه تخطيط عمراني تحت

وطاة الاحتلال حتى هبت عليهم مجموعة من شباب المجمع وطردوهم.

اصبحت الحركة محدودة الا ضمن الازقة ففكر ان يزور صديقه(حسين) عصرا الساكن في الشارع المقابل لداره عسى ان يبدد حنقه الخانق..كان رجلا شيوعيا واعيا منضبطاً يكبره بسنوات (فاكبر منك في يوم يعلم اكثر منك بسنة) وهو معتاد منه النكات الهادفه والجريئة حتى ابان السنوات السالفة.. وطرق باب داره التي كانت تجافي اشعة الشمس ابتعد قليلا عن الباب بخطوات مترددة واستظل بفروع شجرة معمرة كثيفة الاوراق تطل على الشارع بكبرياء حتى اقبل عليه صديقه وقرا في وجهه وجوما غير مالوف بل بانت عليه علامات سخط غير ماكان متوقع منه لانه كان يعاني من تعسف الوضع السابق ولابد ان يكون سعيدا لينالوا الحرية المنشودة في هذا التغير الجديد ففكر ان يبين له عدم اللامبلاة..وبدء صديقه يشرح له ان هذه التاملات مجردة وان الامريكان لم يحققوا لهم ماكان يوعدون به.. بل يدخل البلد بنفق مظلم لم ينتهِ.

كان الفضول يدفع بجميل ليتفحص كلامه فقد احس ان الكلام معه اصبح حزينا فتراجع وغير نبرة الحديث ليخفف عنه سخطه باستلطاف ويعيده الى حالته المرحة.

(2)

أنين العاصمة (بغداد)

الوضع العام في مدينة بغداد غير مطمئن والاخبار يشوبها الشؤم والسكان بين الحين والاخر يفزعون من ازيز الرصاص الذي يشتد ويتزايد في الاماكن القريبة من معسكرات الامريكان فحرص الجميع على ان يقضوا أغلب أوقاتهم في البيوت. وفي حادثة يستذكرها مع ابنائه في ليلة ثقب رصاص الامريكان من النوع الخارق الحارق جدار سكنهم ومن هول الصدمة التي انذرت بانهيار عصبي لاحد ابنائه فقد كانت مطاردة حامية بين المقاومة والامريكان الذين لم يكترثوا بالمناطق السكنيه ويطلقون النار عشوائيا دون تردد. اذ تتابعت الانفجارات بسرعة في الشوارع العامة من قبل المقاومة التي تتصدى الى ارتال

عجلات المحتل واصبحت تكتم الانفاس نتيجة انطلاق المدافع المضادة ويلتمع الجو باضواء كالبرق يجهل مصدرها وكنهها وقد تخيل له ان الارض تتطاير.

كان المجمع السكني التابع للجامعة محاط بسياج منيع ويحكمه باب رئيس تحت سيطرة حراس امنيين صارميين والعوائل فيما بينها تعيش بتآلف وود. بدء الضجر والبؤس يتضح على وجوههم من المجهول ومن المكوث الطويل في البيت غير انه بدد ذلك بلقاءاته المستمرة مع اصدقائه الحميميين في بيوتهم، إذ كانت أغلب جلساتهم في بيت (د. حسين) الذي كان رجلاً شجاعاً كريماً ولبيباً توطدت علاقته به اثناء تلك الظروف القاهرة ومرات يلتقون في بيوت بقية الأصدقاء أمثال (د. رمزي) أو(د. غازي) أو(د. شوقي) وكانت لعبتهم المفضلة (الورق والدومينو) وتأصلت علاقتهم معاً بمحبة عميقة كانت اكسير الحياة لتجاوز عبث الحياة المضنية في حينها التي كثرت فيها الاحداث الرهيبة من قتل واختطاف وسادت فوضى عارمة لم يعرف مصدرها.

بدأت المقاومة تزيد من شراستها التي يتبناها شباب شجعان من عامة الناس جبلت عليهم عقيدتهم بلباس اسلامي امتعضوا بشدة من تواجد الاحتلال، وعلى ضوئها انسحبت جميع القوات المدرعة من شوارع بغداد، واستقرت في اماكن مختارة محصنة، ولكن لم تخلُ من حوادث قتل بين الحين والاخر. في صباح يومٍ اسود استيقظت العاصمة على اخبار مفزعة؛ كل جهة دينية تكيل الاتهامات بشدة الى الأخرى، اسهمت فيها الجوامع والحسينيات، وخاصة بعد انفجار الاماميين في مدينة سامراء وتجاوزت الوعيد الى استخدام اسلحة القتل على المذهب او الاسم او المنطقة كافة..

انها حرب اهلية شعواء حتى وصل الأمر أن أيّاً من شوارع بغداد لم يخلُ من الجثث المجهولة في صباح كل يوم، وشهد أحد الايام بقاء جثة مجهولة ليومين متتاليين لم يستطع احد نقلها.

استمرت تلك الاحداث لمدة غير قصيرة حتى انتبه الجميع انه لا يوجد فيهم رابح، بل كانت فتنة حمقاء قام بتغذيتها اصحاب المشاريع التي تهدف للسيطرة على البلاد.

(3)

الوشاح الاسود في الجامعة

كان الدوام مرتبكا بل مشلولا بالكامل وتجمهر الاساتذة وكلٌ منهم يريد ان يحظى بمنصب إداريٍ، واخذت احتجاجات الطلبة تزداد يوماً بعد يوم؛ وتراهم يزمجرون فمنهم من يريد محاسبة الأساتذة المحسوبين على النظام السابق وفصلهم، وغيرهم يؤيدون بقاءهم لأنهم كوادر تدريسية مميزة لم يلحظوا منهم غير الإباء والصدق والحرص.

في تلك المدة المستعلرة اغتيل (د. فلاح) في باب الجامعة وكان شاباً طموحاً وَرِعاً، لم تسجل عليه شائبة، نقي السريرة وهو صديقٌ حميمٌ له مما ترك في نفسه جرحا عميقا لم يندمل...وفي حينها اجتمع رهط من زملائه ليحضروا تابينه في احد مساجد حي الكم المتاخم لحي الاعظمية.

بقيت حشود الطلبة في هرج ومرج والأساتذة برغبة شديدة للتدريس لأن الفصل الثاني اوشك على نهايته. خسرت الجامعة بعض كوادرها المهمين لهجرتهم خارج البلد بحثا للامان.

في ليلة تم الاجتماع في بيت أحد الأساتذة ضمن السكن الجامعي. في حينها لبى هو دعوته لذلك الاجتماع، الذي قُرّرَ فيه ان يكون (د. طاهر) رئيسا للجامعة و(د. تقي) مساعداً له وخلال أسبوع اخذ كل منهم منصبه.

بدأت الامور العامة تسير نحو الهدوء ولكن الجميع على ريبة، فالجامعة غيرت حلتها الجميلة وتحولت

كرنفالاتها المبهره في كل المناسبات الى مهرجانات فوضوية اغلبها تتوشح بالسواد وحدائقها استغلت للمناسبات الدينية مما بعثت في النفوس التقزز الشديد. واصبحت جدرانها مكتظة باعلانات وشعارات سياسية لم تمت للجامعة بشيء. واخترقت قدسيتها مرات من قبل جنود الاحتلال. وكان خروج الاساتذه على شكل جماعي او يغادر الجامعة مبكرا تحاشيا لاي مكروه. انتهى الفصل الدراسي الثاني على مضض والكل تنفسوا الصعداء ليحدوا من حركتهم ويبتعدوا عن الاماكن الخطرة.

(4)

صاحب التاكسي.. واصالة الزوجة

مجموعة من الاساتذة لم تُدرج رواتبهم في قائمة الرواتب لظروف لاتوصف الا بالغامضة ومن دون الخوض بتفاصيلها، كان من ضمنهم رغم استمرارهم بالتدريس ليسجل عميد الكلية موقفاً انسانياً سامياً تمثّلَ بمنحهم أجور

محاضرات ولكنه أحس بغصة شديدة لأنه لم يوفر لعائلته كالسابق.. ليعلن بينه وبين نفسه قراراً يقضي بأن يخرج بسيارته صباحا على هُداه في شوارع بغداد التي باتت كئيبة تعبث فيها الفوضى، منتظراً كل من يرغب باستئجاره فكانت المرة الاولى في حياته أن يتخذ سيارته وسيلة لكسب رزقه.

في البدء عند خروجه من المجمع القى عليه التحية احد حراسه(ابو علي) وبؤس وجهه كان يسهل لاي رسام ان يجيد رسمه، فقد حفر غضب الدهر خطوطه باصرار على ملامح وجهه وكانت وجهته الى زقاق لايسكنه الا البائسون وشكره الرجل بعد وصوله وكان معتادا على هذا المشوار وحال توديعه أومت له امراة طاعنة بالسن مع بنتها تحمل طفلا رضيعا تروم مراجعة المستشفى في حي الشعب وكانتا منهمكتين بحال الطفل الذي لم يهدأ من الصراخ لعلة ما..فانشغلتا عن اعطائه الاجر وهو تغاضى عنه.. صعد بجنبه رجل صاحب وقار بدين وطلب منه توصيله الى الباب الشرقي وفي حينها كانت ساحة الطيران

مستهدفة لم تخلُ بين يوم وآخر من الانفجارات ولم يرغب التوجه لها ولكن اذعن لطلب الرجل على مضض واخذ يشرح له ظروفه المادية..ان له شريكاً في شركة تجارية كبيرة ووضع راس ماله كله بها وبعد الاحتلال غادر الى جهة مجهولة حاله كحال كثير من العراقيين طلبا للامان الذي بات معدوما الى حدا ما والشركة اصبحت قريبة من معسكر الامريكان وانقطع التواصل معها، بعد ان اوصله انحرف يسارا عبر ساحة الطيران.. حاول ان يخرج من تلك المنطقة باسرع وقت الى شارع الشيخ عمر وتوغل به.. صادفه عاملان يحملان ادوات صيانة للسيارات خارجان من شارع شيخ عمر يرومان حي الطالبية ليس ببعيد عن بيته وحال انطلاقهم سمعوا صوت انفجار مدويا هزَّ سيارته من قوة العصف علموا انه انفجار في الجانب ليس ببعيد من ساحة الطيران راح ضحيته بعض العمال واصحاب العربات للبيع في الهواء الطلق..عاد للبيت متاخراً غير عادته.

انتبهت له زوجته، وقرأت ملامح وجهه وسألته عن سبب تأخره؟.. وتذرع انه قام بتصليح سيارته لكنها لم تقتنع وفاتحته انه كان غير ذلك وأسمعته عتاباً رقيقاً واوضحت له: (كنا سابقا نعيش براتبك الذي كان يكفينا، وراتبي لم يُحسب، اما الآن فراتبي وما تجنيه من محاضرات يكفينا حد الرضا.. وأرجوك لا تغامر بحياتك والشارع غير آمن وتواجدك بيننا هو الدنيا بحالها).

كان كلاما جميلاً ومؤثراً.. سمعه من زوجته التي تعاملت بأصلها ولم يخطر ببالها غير ان تكون بجانبه ولم تخذله بل حسسته بمكانته وأنهم بحاجة أليه وتمنت عليه ان يبقى لها ولأولاده غير آبهين بنكد الايام..

وفعلا اذعن لكلامها الرقيق وموقفها النبيل الذي حفر على جنبات الضلوع كي لا ينسى موقفها الفريد ما دام للحياة بقية...

لم يكن هذا المديح كافياً بل ذكر مناقبها اكثر من مناسبة.. فجاء في أهدائه لها في أحد كتبهِ..(لم اهدِك او

اعدك بشيء لاني لا أملك قنطاراً من مواسم الجنان أو شهد الصحة استطيع أن اناله لاقدمه عربوناً للوفاء والاحسان..وصبرك الجلد الذي غمرتني به طيلة مدة معاشرتي التي عندها كنت تعملين جاهدة على صفائها وديمومتها بجدية ومثابرة..الا اني اقول ألان كلمة حق عسى أرضي بها ربي واريح ضميري ..انك تحملتِ معي شظف العيش وغضب الايام بل سنينَ عجافاً وسهرتِ ليالي لتوفري لي فرصة أطلق بها مكنوناتي ..انتِ شريكتي في كل كلمة اسطرها بل في كل حرف أرسمه ليكمل معنى فيه احسان وخير ومعروف..إنك مثلما أهديتني اولاداً وبناتٍ رائعين افتخر بهم ألان يحق لي أن أفتخر بك ..امرأة عصامية تفكرين بصمت وتعملين بهدوء لكي تنوري حياتي من ظلام الزمن وحقده..أهديتني كل هذا النجاح بعد رضا ربي ومحبة الناس من خلال ماأنجزه الذي لم اطلب به مالاً ولاشهرةً..إن شاء الله يجعل جهدك في ميزان حسناتك..ويقدر لك أشياء لم تحتسبيها في طاعته ورضوانه.)

الفصل الحادي العشرين

(1)

زكاة العلم

اول حكمة يتعلمها الانسان ان يجعل الله سبحانه وتعالى نصب عينيه ليلا ونهارا وفي السر والعلن ويليها ان يتغاضى عن زلات الاخريين وقصورهم ولكي لاتنقل مشاحنات العمل الى دارك وتصبح العائلة تعيش في نكد ممل..وكن جميلا لكي تُجعل الاشياء لك اكثر جمالا. اما الحسنة الاخرى ان تحب مهنتك وتخصصك لانها مصدر رزقك وجاهك(الانسان يكرم على مايحسنه)..كانت تلك الحسنى لم ينفك منها.. فرغم الظروف القاهرة لم تلجم اندفاعه ان يقوم بدوره الانساني فجاهد بتدريس طلبة قسم الكيمياء للمرحلتين الاولى والرابعة حسب المقررات وكان يجتهد في ان ينال طلبته ما يستحقونه من العلوم، ولاحظ على تعاقب الاعوام انهم يعزفون عن التنافس الشديد فيما

بينهم بحجة ان الزملاء في تخرجهم لم يحظوا بوظيفة يمارسون فيها اختصاصاتهم فقتلت عند بعضهم الطموح المشروع.

اخذت مستوياتهم العلمية بالتدني سنة بعد سنة مما اجبره ان لا يثقل عليهم وحسب مقولة : (مُرْ بالمستطاع تطاع) لأنه وجدهم مشوشي التفكير غير آبهين بما يتمنى لهم.

الحياة لاتتهادن مع الكسالى والمترددين بل سر ديمومتها هو الابداع والتجديد ومن هذا المبدا سعى حثيثا ان لا يقف متفرجا على تلك الظروف القاهرة التي ضربت بأطنابها على اهم شريحة اجتماعية، وحاول ان يبذل قصارى جهده في لجم نزعة اللامبالاة التي اخذت تسري بين صفوفهم كسري النار في الهشيم وحاول ان يبدأ بتوعيتهم، وإثارة ادراكهم بخطورة المرحلة وهم بناة المستقبل. ويرى ان الجميع يتشاركون في الانسانية وفي المعاناة وفي القيود المجتمعية والاحلام وان اختلفت طرق

التعبير عنها. فلابد ان يدلي بدلوه ويأخذ مكانته في تلك الظروف.

اقترح عليهم اولا أن لا يدخل الى قاعة المحاضرة الا بعد تنظيم صفوفهم، إذ لاحظ وبخبرته ان لم يكونوا مهيئين للمحاضرة قد تفقد قيمتها وخاصةً عندما يكون عنصرا التنظيم والانضباط غائبين واتفق برضاهم ان يقفوا احتراماً ليس له بل لقدسية المحاضرة، وكانت استجابتهم رائعة مع اختيار أحدهم ان يكون ضابطاً لوقت المحاضرة وبمثابة آذان ينهي محاضرته فورا عند استلام الاشارة من المعني مع منحهم خمس دقائق مستقطعة من زمن المحاضرة كي يأخذوا قسطا ميسورا من الراحة.. كان هذا نهجاً اتّبَعه طوال تواجده في التعليم الحكومي.

وكانت الامتحانات المعتادة تكون اختبارين في الفصل الاول واختباراً ثالثاً في الفصل الثاني لأن دراستهم عبارة عن فصلٍ سنوي، ولكن ادرك ان بعضهم يتحجج باي سبب لفشله بالاختبارات كلها مما جعله في أن يسعى

بالموافقة على من يرغب بإجراء اختبار رابع او خامس ليمنح الطالب الراسب الفرصة ليلتحق بزملائه الناجحين وهذه تجربة مجهدة ولكنها اعطت ثمارها.

كان يُدرّس مادة التحليل الكيميائي الآلي للمرحلة الرابعة، وحاول ان يخلق روح المنافسة عند طلبته الذين فقدوها بعد الاحتلال واصبحت رواتب الاساتذة الجامعيين مغرية واستحقت الزكاة فبادر بصفة شخصية ان يُخبر طلبته وهو لم يتعرف عليهم بعد في أول اختبار؛ من ينال درجة متميزة تنتظره مفاجئة سارة.

وعند توزيع أوراق الاختبار يحضر مقرر القسم ويشُهّد الله والطلبة على ما ينوي فعله.. من ان الطالب الذي ينال اعلى درجة وبامتياز تكون دراسته العليا على حسابه الشخصي للعام القادم، من دون مِنّةٍ بشرط بقاء راتبه كما هو وتكون الدراسة داخل البلاد مع هدية متواضعة كانت اغلبها كتابه في نفس المادة التي يدرسونها.. واصبحت هذه المبادرة نهجاً للسنوات اللاحقة..

حقا كانت فكرة مبدعة استقاها من الايام الخوالي عندما كان يحتاج إلى من يسنده لم يجد من يسعفه. ولم يكتفِ عند هذا الحد بل بادر في مجلس قسم الكيمياء بان يحددوا الطلبة المتعففين بعد ان قست الظروف على كثيرٍ من العوائل وتم توزيع اسمائهم سرا على الأساتذة برغبتهم من أجل توفير مبلغ مالي شهري يعينهم على قساوة الحياة.

كان في يوم ما متواجداً في مختبر التحليل الآلي ولمح في الخارج أحد طلبته من المتخرجين السابقين..تسلّم منه اشارة يريد التحدث اليه ولبى رغبته وبدأ يكيل له عبارات الشكر والامتنان على حسن صنيعته وسلمه ظرفاً ابيضَ ممتلئاً.

تردد في حينه لأنه يخشى من المجهول واستدرك الطالب انه الان يعمل في مخزن أدوية صباحا ويشتغل في صيدلية مساءً ووفر مالا ممتازا والان يسدد دينه لمن سانده عند الحاجة وراجع ذاكرته ان هذا الطالب كان متفوقا ومؤدبا وَقِبل تسلم الظرف بعد الحاح شديد منه ولم

يفتحه الا بعد عودته الى البيت واخبر وزجته وعاتبته قد يكون هذا فخا! وابتسم قائلاً: (لا تخافي يا عزيزتي احتفظي بهذا المبلغ.. ما كان لله ينمو) ليكون بركة في البيت.

(2)

الخير ياتي سريعاً

كان جالسا في مكتب لبيع العقارات مع صديقه (د. صدام) الذي تسلّم مكالمة تلفونية واخبر المتصل بانتظاره عند ذلك المكتب.. بعد لحظات حضر ذلك المتصل وكان (د. كريم) مديراً لمركز البحوث والتطوير النفطي في وزارة النفط وكان رجلا ذكياً وعلمياً، وبادر صديقه بتقديمه له مشيرا الى اختصاصه في مجال النفط ويمكن الاستفادة من خبرته ولم يتردد (د. كريم) بطلب ارسال سيرته العلمية له..

بعد فترة تسلم دعوة حضوره والتعاقد معه كاستشاري علمي في قسم التحليلية براتب شهري مقداره (750 الف دينار).

كان هذا المجال مفصلاً رئيساً في حياته العلمية وكأن مارد الحياة فتح له بوابةً جديدةً لم يعِ بوجودها من قبل وهو الان وجهاً لوجه مع الجانب العملي الذي كان يفتقده بسبب افتقار قسمه للعديد من الاجهزة المختبرية وقد وجد ضالته في هذا المركز الذي ثبت نظره على أجهزته الحديثة وكأنه يراها لاول مرة في حياته.

المجموعة التي التحق بها كانت ذات خبرة عالية ومهنيين على درجة ممتازة من الالتزام يقودهم رجل اسمه (الخبير كريم) لم تقل اخلاقه عن خبرته له من اسمه نصيب كبير، وكان كنزاً من المعلومات، وشّحتهُ السنون بها، أهدته السماء له وتوافق معه الى حد كبير وكل منهما معجب بالآخر، ووفر له كل المستلزمات التي يحتاج إليها فيعطي ما بجعبته من افكار ومعلومات.

اخذ يحضر يوماً في الاسبوع وعلى الاغلب كان يوم الخميس، بأن يعطي ورشة عمل على أحد الاجهزة المتوفرة في المركز وتبدا المناقشات الهادئة في نهايتها، وهذا نهج استمر عليه طويلاً. في أحد الايام همس بأذنه مدير البحث والتطوير (مهندس علي) مادحا (بانك تعمل بصمت).

لم تقف نشاطاته عند هذا الحد بل اقترح عليه الخبير (أ. كريم) الذي تعمقت علاقته به حتى اصبح صديقاً حميماً جداً بان يعتمدوا مع فريقه البحثي احد المشاريع المقترحة من قبل وزارة النفط وهو(معالجة المياه الملوثة الخارجة من مصفى بيجي) القريب من مدينة تكريت وتم انجازه وكان مشروعاً رائداً حاز على موافقة وزارة النفط ومصفى بيجي.

تم تجديد عقده للسنة الثانية من دون اقرانه من الاساتذة المستشارين واتفق مع الخبير وفريقه على انجاز مشروع آخر وهو (معالجة الخَبَث الذي يرافق المعالجة

البيولوجية للتلوث النفطي) وحصل على موافقة وزارة النفط وشركة نفط الشمال التي اقترحت المشروع وكانت النتيجة مرضية جدا ومقبولة من كليهما.

(3)

الحَسَنَة الدائمة

بدأت العديد من شركات النفط العاملة في العراق في المجال النفطي، مخاطبة المركز في تحليل نماذج نفطية وكان من ضمن اختصاص القسم الذي تعاقد معه ورغبة الشركات ان تكون النتائج موثوقاً بها ومدعومة بشهادات تؤكد صلاحيتها، وهذا يتطلب ان ينال القسم شهادة الايزو للتحليلات المطلوبة.

اشرنا سابقاً اهمية هذا المركز وهنا سعى ان يتعاقد مع بعض الشركات لتحقيق هذا المطلب وفعلا تم الحصول على شهادة (ايزو 17025) لبعض التحليلات وحسب

اختبار(زد سكور)[16] اي يرسل انموذجاً معلوماً من الشركة المختصة الى عدد من المختبرات التي تروم الحصول على شهادة (الأيزو)[17] وتتلقى النتائج من جميعها وتقوم بدورها بإخراج الانحراف المعياري لها، ومقارنة نتيجة كل مختبر بغض النظر عن الجهاز او الطريقة المستخدمتين مع قيمة الانحراف المعياري فاذا

---

(16) الدرجة المعيارية (Z–Score): مصطلح إحصائي يُعبّر عن علاقة قيمة بعينها مع متوسط مجموعة قيم، وقد تكون الدرجة موجبة أي أن القيمة أعلى من الوسط الحسابي، أو سالبة أي أنها أقل قيمة من الوسط الحسابي، أما إذا كانت قيمتها صفراً فهذا يدل على أن الدرجة مساوية للوسط الحسابي. تُستخدم الدرجة المعيارية في معرفة موقع وأهمية درجة معينة بالنسبة إلى مجموعة من الدرجات في نفس التوزيع أو لمقارنتها مع درجة أخرى في توزيع آخر.

(17) تُعرّف شهادة الأيزو بأنّها إقرار بإيفاء المنتج، أو الخدمة، أو المؤسسة متطلبات الجودة الدولية المحددة، والتي من شأنها رفع مستوى مصداقية المؤسسة أمام العملاء، ويُمكن اعتبارها ضمان وتأكيد من جهةٍ ثالثة على أنّ الجهة التي تُطبّق نظام الأيزو تُحقّق جميع المتطلبات القانونية للجودة، الأمر الذي يُؤدّي إلى جذب المستثمرين وزيادة مستوى المبيعات.

كانت النتيجة اقل من ثلاثة تكون مقبولة واذا اكثر ترفض النتيجة.

كان الخبير (كريم) مولعا بهذا الاتجاه مما زاد فضول (جميل) نحو هذا التوجه وهو من صُلبِ اختصاصه وبدأ يأخذ أولى اهتماماته.

الاعجاب والأُلفة بينه وبين الخبير (كريم) اصبحت عميقة ولم تَشبْها شائبة بل كانت نقية محورها العطاء العلمي. في احد الايام طرح عليه صديقه فكرة تأليف كتاب يتضمن محاضراته التي يجد فيها فائدة لأهميتها، وكان هو له تجربه سابقة بالتأليف..

كان يصغي باهتمام لكل رأي يقترحه صديقه الخبير لإيمانه التام بصدق ما يقول ولكن تواجهه معضلة الطباعة لان محاضراته كانت مدونه بخط اليد، ففاجأه صديقه بابتسامة عريضة مع عبارة (انا اساعدك بالطبع)..

انبهر وردد يا صديقي كيف ارد لك جميلك.. وأجابه الخبير بحنكة: (ان العطاء في سبيل العلم حسنة دائمة).

كانت كلمات صديقه الخبير شحنات استنفار لمخزونه العلمي الذي حبسه وكان صائبا. وبدأ بتنفيذ مشروعة وخرج الكتاب تحت عنوان: (طرائق وتقنيات حديثة في التحليل الكيميائي الالي) وذلك في عام 2013.

كان كتاباً متميزاً ولقيَ رواجاً واسعاً لدى الجامعات العراقية وبعض الجامعات العربية وطبعت منه (1000) نسخة جميعها نفدت وُطبعت طبعة مُنقحة ومزَيدة عام 2021 واعتمد مصدراً رئيساً في بعض الجامعات وللإنصاف كانت بصمة صديقه واضحة فيه.

فصل الثاني والعشرون

(1)

فرصة العمر

دأبت مديرية (البحث والتطوير) في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ان ترسل مجموعة من الأساتذة سنويا خلال العطلة الصيفية إلى أحد المراكز التي تعاقدت معها في (المانيا) لتطوير الكوادر اداريا وعلميا ضمن دورة مدتها شهر.

قَدّمَ سيرته العلمية اسوة بزملائه وكان احد المرشحين للزمالة في ذلك العام وبعد فترة استبدل اسمه بتدريسي اقل بكثير من مجموع نقاطه، راجع الدائرة المعنية مستاءً لهذا الموقف وكان الحزن نائما عند جفنيه وكانت عزة نفسه المكتنفة التي دفعته بالمجيء الى هناك..فلم يجد من يسمع شكواه من جوارحه فتذكر صديقاً له كان والداً لإحدى

طالباته يعمل استشارياً في جهاز الاشراف والتقويم في وزارة التعليم العالي اسمه الأستاذ (عامر)..

غادر المكان بمط شفتيه امتعاظاً ومكابرةً بعد توجيهه عتاباً شديداً للموظفة المسؤولة التي لم ترد ببنت شفة لتقصيرها، وجزم ان الاجراء غير صحيح من اساسه. فتوجه عبر المصعد الكهربائي الى الطابق السابع الذي يعمل به صديقه، وكان شديد الذكاء سمح الطلعة وديع المحيا استقبله بابتسامة هادئة وكلمات ودٍّ صادقة وقد قرأ صديقه في وجهه ملامح الضجر ولما علم منه ما حدث صحبه معه من دون ان يرتدي سترته ليشعر صديقه ببساطة المهمة ونزلا الى الطابق الخامس ثم دلفا الى غرفة واسعة تتراسها امرأة وقورة كانت على معرفة وثيقه به ووضح لها الالتباس الذي حصل ووعدته خيرا بان يتم تصحيح الخطأ واخذ يتابعه بنفسه الى حين صدور امر زمالته. هذا الموقف صنع عُرى صداقة بينهما لا تنفك.

سافر في بداية شهر اب من عام 2014 الى المانيا ضمن مجموعة تضم خمسة عشر تدريسيا والتقى بهم مدير المركز التابع الى جامعة (نورنبيرغ) وهي جامعة عريقة بنايتها في الأصل كانت قصراً لأحد الملوك في القرن التاسع عشر أهداها لتكون جامعة.

كان مولعا بجودة المختبرات ففي اول لقاء اقترح على المضيفين زيارة مختبرات الكيمياء التابعة لتلك الجامعة. تمتع باطلاعه على المعالم العلمية وانهى عدداً من الدورات القصيرة التي تهتم بالمحاور الادارية والعلمية، فضلاً عن المعالم السياحية مثل البندقية في ايطاليا، وبرج ايفل في فرنسا، واشهر كاتدرائية في براغ.

منتهى سعادته تجسدت عندما ابلغوه ان ممثلة الجامعة سوف تستقبله في صباح يوم الثلاثاء. كانت امرأة لبقة خفيفة الظل، استقبلته بحفاوة لافتة، واخذت معه صورة تذكارية واعطته ملفاً يتضمن معالم الجامعة وكلياتها وتعليماتها ثم اتصلت بأحد الاساتذة الذي كان على موعد

معها بنفس اختصاصه، صحبه الى قسم الصيدلة والكيمياء ثم توجها الى مختبر الكيمياء التحليلية واطلعه على سير التدريس والمنهاج الدراسي للمرحلة الثانية.

كان المختبر واسعا وآثار القِدَم واضحة عليه يسع (50) طالباً يدفع كل منهم (50) يورو في بداية كل عام لتلافي ما يحدث من خسائر في المواد والمستلزمات المختبرية طيلة السنة. تتوزع التجارب عليهم بالتوالي وكل منهم يخصص له مكانٌ خاصٌ يجري فيه تجاربه لوحده ويحتوي المختبر على غرفة جانبية يتم فيها التحليل بوساطة اجهزة خاصة بإشراف احد المختصين، ويزود المختبر بوحدة غسل العين في داخل المختبر وحمام مائي (دوش) خارجه لضمان السلامة، ويخصص خزان للمواد السامة او الخطرة، مسيطرٌ عليه من مشرف المختبر.

اعتادت وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ان يؤدي كل تدريسي زائر بعد عودته من الخارج محاضرة خاصة تتضمن نشاطاته عن زيارته وإطلاعاته وترسل على شكل

تقرير الى المراجع. استشار صديقه (استاذ عامر) الذي له باع طويل في نظام ادارة الجودة وخاصة (ايزو 9001) عن امكانية تقديم محاضرة عن جودة المختبرات وخاصة (ايزو 27025) التي كان قليل الدراية بها، ولو كان قد سمع عنها عندما كان استشارياً علمياً في وزارة النفط، واتفق ان يهيئ محاضرة وصديقه يصحح له ويناقشه ويشجعه، رغم علمه بانه يحتاج الى مطالعة اكثر والشيء المفيد هنا كان ضمن اختصاصه، وهذا اعطاه اندفاعاً وتحدياً كبيرين.

توصل الى محاضرة كانت مفرداتها مقنعة وفي حينها ضمّنها فكرة كانت تختمر عنده منذ زمن وهي كيفية حماية المختبرات وما تحتويه من اجهزة مهمة وغالية الثمن.

انبهر صديقه بها واشار عليه ان تتضمن محاضرته هذا المقترح لكي يطرحها على المعنيين في الوزارة. قَدّمَ محاضرة حضرها اغلب منتسبي قسمه وبعض الاساتذة من الاقسام الاخرى كانت ناجحة بالمقاييس العامة صورها

وسجلها على قرص مدمج وارسلها الى صديقه (استاذ عامر) ليعرضها على المراجع العليا.

الفضل الاول في تبني (جميل) لهذا المعترك يعود الى صديقه (استاذ عامر) الذي اعطى دون ان ينتظر رد الجميل، وغاص على اعماق وجده ليظهر نعيم مكنوناته، تعلم منه كيف يسطر المعلومة حتى تفيد من يحتاج إليها كان، له خزين لا ينضب لمصارعة غضب السنين وشاركه في اول كتاب يختص بجودة المختبرات.

(2)

اسماء وفضائل

تمنى جميل ان يمنح نفسه فرصة ولو بقسط قليل لرد الجميل لكل من وثق به او امتدحه ولو بكلمة حسنى وكلٌ حسب دوره، فمنهم مَن أسهم بشيء في بناء وصقل شخصيته، والاخر وفرَ له ما تيسر لديمومة الحياة وبعضهم احاطه بودٍّ كان يحتاج إليه، او بادر مخلصا

بنشر مقاله او فديو يتحدث عن مكنونات هذا الرجل، اي كان كلٌ منهم له بصمة محببه في ارشيف حياته.

ابناء مدينته كرماء معه فقد كتبوا عنه بدون تردد عبر قنوات التواصل الاجتماعي بعناوين أطراء مختلفة، ومنحوه حصانة اندفاع دون تردد نحو العطاء والابداع، اسعدته رغم انها جلبت له صداعاً يؤرقه خشية ان لايكون عند مقصدهم او تنهار ثقتهم به عند سكونه، ومن الانصاف ان كلماتهم كانت حقنة الديمومة والاجتهاد له.

كان المشرف (جواد كاظم ابو علاء) اول مبادر ليكتب عنه(مبدعون من مدينتي) بمقالة رائعة كانت باكورة اجتهاد خيرة للعزف على اوتار العطاء للايام القادمة، اما المشرف (حسين محمد ابو وحيد) اثنى على جهوده العلمية بمنشور عنوانه(عالم من مدينتي) جسد فيه بعض الجوانب المهمه في حياته التي كان شاهدا عليها، وقد تناول المعلم (صلاح الدبي) شرحاً محبباً عن حياته العامة التي اطلع

في جزءٍ منها ضمن منشوره(تربيون، شطريون، من ذلك الزمان).

العمل النافع متعة ومكافأة وقوة، تجعلك تقطر عصارة افكارك وانت تلحق ساعات راحة جسدك من لذيذ النوم بالنهار، وتكابر ارق الضمير حيال ماستخلصته من سمو مهنتك.

كانت بطلة الارشفة – كجهد ينتفع به كل من يحتاج اليه– الاستاذة الدكتورة ندى العابدي، تدريسية في جامعة بغداد ومديرة قناة الجامعية/ وزارة التعليم العالي، بمهنيتها العالية وسعة ثقافتها وانصافها للمبدعين كان اختيارها له ليكون ضيفا ضمن برنامج(عراقيون)، مفاجئة اسعدته، رغم عدم مشيئة الايام في تعرفه عليها، مما جعل يستذكرها بخير عندما ترد المواقف الحسنى في حياته.

زاده بهجةً عندما كتب عنه صديقه البروفسور دايخ عبدعلي في احد مواقع التواصل(رجال في حياتي)، كانت ومضات صادقة تعزز نهجه في الحياة عبر مراحل العمر.

(3)

الأدعاء المزيف

اوضح له صديقه عامر بانه تم اختياره في اللجنة الوزارية التي شُكّلت في جهاز الاشراف، وكانت تهدف لتنظيم المختبرات التابعة لمؤسسات وزارة التعليم حسب مواصفة (ايزو 17025) وكان متحمسا لهذا المشروع بل يتمنى ان تاخذ افكاره في هذا المجال قيد الدراسة وبعد عدة اجتماعات من النقاش وجد ان هذه المواصفة غير مناسبة لهذه المختبرات وهو ضليعٌ بهذا الاتجاه، لذلك اقترح مواصفة اخرى اكثر تناسبا وهو ممارسة المختبر الجيد (good laboratory practice GLP).

اقترن اسمه بهذه المواصفة في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي والتي تعتبر هذه المواصفة اللبنة الاولى لتأسيس اي مختبر والشيء الجيد في هذا النوع انه يهتم

بالبيئة المحلية وخاضعٌ للمواصفات الدولية. قامَ بتأليف كتابين ضمن هذا الاتجاه، واوضح في كتبه انه المُقترِح الاول لتبني هذا النوع من المواصفة، لكونها ضمن اختصاصه الدقيق واسهب في شرحه في ثلاثةٍ من كتبه.

شُكّلِتْ لجنه وزارية اخرى، كان هو رئيسها خاصة بتطبيق ممارسة المختبر الجيد في مختبرات العلوم الصرفة لجميع مؤسسات وزارة التعليم العالي.

اسهم بنشر الوعي بمفهوم الجودة ومواصفات الايزو وما يهم المختبرات من خلال الورش والمحاضرات التي قام بإلقائها في معظم الجامعات العراقية، مثل: (كركوك، بغداد، المستنصرية، والتكنلوجيا، النهرين، ذي قار، سومر، الوطنية الاهلية، الرمادي) واخرى.. وبعض الوزارات مثل: (وزارة الداخلية، وزارة التخطيط).

وفي احد الايام اقام قسم اعتماد المختبرات في مقر الوزارة مؤتمرا عاماً حضره معالي وزير التعليم العالي والبحث العلمي وعرضوا جميع نشاطاتهم باستثناء نشاطاته

واقترح عليه صديقه استاذ عامر بأن يقدم مؤلفَيه في نظام جودة المختبرات الى معالي الوزير واستدرجه زميله دون رغبته له وسلمه إهداءه وفاجأه الوزير بانه تسلم هذين الكتابين.. صعق جميل وتلعثم وتراجع باستحياء..انها كارثة التعليم.. يدعون جهود الاخرين دون علمهم لكي يحصلوا على رضا مزيف من اسيادهم..

(4)

العطاء المثمر

النجاح في الحياة ليس مقياسه الدرجة اذ انهما يخضعان الى ضوابط عديدة وتجارب مريرة وقد يتحكم بها الجهد والحدس ومن المثمر ان تستدل في حياتك العملية والعلمية بالتجربة دون ترك اراء الاخرين لتدرك ان النجاح حقيقة لاتمنحه الشهادة فقط..فالنجاح لايعني انه اذكى من الاخرين فقد تفقد ذلك عند اصابته بالغرور الأعمى او باطراء المحبين له فيتوقف عنده الابداع والعطاء ..وكان يخال له انه وصل الى المنتهى فيتفاجأ بالمآل لسوء تقديره

فيترك الاجتهاد والعطاء..وقد حصل لاولئك الذين الفوا المدح والثناء وتوهموا ان لااحد فوقهم فكانت النكسه ديدنهم..فان النقص والغرور يبان من سقطات احاديثم وطيات السنتهم. ان التواضع في العلم سنَّة وبصمة للعلماء الكبار وسلمٌ للتغير نحو الافضل لخلق بناء شامخٍ تفتخر به الاجيال ...يقول الامام الشافعي:

تَواضَع تَكُن كَالنِجِم لاحَ لِناظِر.. عَلى صَفحاتِ الماءِ وَهوَ رَفيعُ

وَلاتكُ كَالدُخانِ يَعلو بِنَفسِه.. عَلى صَفحاتِ الجَوَّ وَهُوَ وَضيعُ.

إن الحصول على الشهادة هي ايذانٌ للتوغل في اجواء الممارسة والخبرة اللتين تكونان محفزين لتنمية المهارات وبذل قصارى الجهد في العطاء.. ولايليق ان يجترىء على آراء الاخرين دون ان تكون لك بصمة تغيير او اضافة او حالة ابداع يرتقي بها نحو الافضل للتواصل مع من سبقوك من العلماء لتضع على الاقل لبنة بناء ضمن الهيكل العام للبنية الانسانية.

ومن هذا المنطلق..اسهم بشكل فاعل في الاشراف على طلبة الماجستير والدكتوراه في مشاريع شتى منها لا للحصر؛ معالجة التلوث البيئي، والتحليل الصيدلاني والتحليل النفطي ودونت احدى رسائل الماجستير كبراءة اختراع مميزة نالت الجائزة الذهبية في المؤتمر الدولي للمخترعين في الصين. فيما نُشِرت احدى اطروحات الدكتوراه كتاباً مهماً في مؤسسة (الاكسبريس) الالمانية. وفي أحد زياراته الى المانيا أطلع البروفسور بهادير (مدير مركز الدراسات العراقية في جامعة نورنبيرغ) على غلاف الكتاب ومثبت عليه صورة بنت حسناء ذات زي بعيد عن الاحتشام فمازحه(هل هذه طالبتك) فعلق جميل..انها اجمل فتياتكم يا استاذ وهي من اختيار دار النشر.

تولى مهمة الاشراف على اطروحة دكتوراه لأحد الطلبة من المنتسبين لإحدى الجامعات الدنماركية تناولت حالة التلوث الناتجة من العادم الصادر من السيارات لساحة الباب الشرقي لمدينة بغداد، كما اشترك رئيساً او عضواً

لمناقشة اكثر من مائة رسالة او اطروحة وبعددها لتقييم البحوث العلمية.

كانت تجربته الاولى في التأليف ناجحة جدا كما ذكرنا سلفا، ونال من خلال كتابه شهرة واسعة على مستوى المؤسسات الجامعية وكثيرا مايسعد من مقابلة المهتمين من نفس الاختصاص من طلبة وتدريسيين وهو يلمح غبطتهم على اسارير وجوهم..وفي أحد المرات وهو سالك احد الطرق في مدينة الكوفة فاجأه احد الاشخاص طويل القامة جيد الهندام تقدم اليه بكل وقار وبوجه متهلل بعد ان سلم عليه ..حضرتك انت فلان فتردد ثم اجابه ممازحا يبدو لي انت متاكد فَلِمَ السؤال ..دكتور عرفتك من صورة غلاف كتابك القيم..لقد دخلت الامتحان الشامل الشفوي وكانت اجابتي مرضية جدا الى اللجنة الممتحنه وقالوا لي انك باذل جهدٍ كبيرٍ فاجبتهم بالموافقة والأن اصرح لجنابك كان الفضل لك لاني اعتمدت كتابك مصدراً رئيساً.. وبالغ في كيل المديح بمفردات الكتاب.. وردد في سره انها نعمة تجد من يذكر جهدك لم يطلب منه غير رضاء الله.

ثم لاحظ أن هناك تطوراً في صيغة الاسئلة مما دفعه ان يقوم بتألف كتابٍ يتضمن ما يقارب من الألف سؤال، مع اجوبته بمختلف اختصاصات علم الكيماء، ونال استحسان شريحة مهمة من طلبة الدراسات العليا ومن النوادر في هذا الكتاب ان عدد من المكتبات او المجاميع الفيسبوك يستنسخونه ويبيعونه نتيجة الطلب المُلح عليه..وهو يتلقى كثيراً من الاستفسارات عن ماهية الاسئلة التي يتضمنها الكتاب ومن قطاعات واماكن مختلفة وهو لم يبخل عليهم بالاجابه والوصول الى القناعة المرضية منهم دون الاكتراث بالوقت والجهد والمال.

جودة التعليم من الامور المهمة التي يجب على كل مؤسسة وضعها في المناهج والخطط التعليمية والارتقاء بالتعليم فالمساعدة في جودة الاطر التعليمية والادارية والتحسين المستمر في التقييم الدائم لنتائج العملية التعليمية كان هدفا ساميا بنظره..ولكي يصل الى هذه المعايير لابد من وضع اليات ووسائل تساعد على تحقيق جودة التعليم التي باتت الان حقيقة قائمة لايمكن تجاوزها. فقد اسهم

بتأليف كتابين مهمين في نظام جودة المختبرات، احدهما كان أساساً للمفاهيم الاولى لنظام الجودة واقتنته الكثير من الفئات المختلفة وفي ميادين عديدة.

وتوصل ان كتابه الاول (طرائق وتقنيات حديثة) كان بمثابة الجزء الآلي لفرع الكيمياء التحليلة ولابد من دعمه بكتابٍ يهتم بالطرق الكلاسيكية، ووجد مبتغاه عندما كان تدريسيا في قسم الصيدلة وقسم الاشعة والسونار في الجامعات الأهلية واستنتج كل الاقسام الطبية وخاصة في المراحل الاولى التي تدرس ضمن منهجها علم الكيمياء وخاصة (التحليلية والعضوية والحياتية) لتساعده في تأليف كتابه الجديد على هذه الاختصاصات(المبادئ الاساسية للكيمياء في العلوم الطبية)2020 باللغة الانكليزية. ومن طرائف هذا الكتاب كان جميل منهمكا في انجازه ليقدمه هدية الى عميد الكلية التي ينتسب لها وفعلا قدمه وتم توثيق مراسم التقديم ونشرت على صفحة الكلية وكان ينتظر من العميد اشارة رضا عن جهده ولكنه لم ينبِس ببنت شَفة..فاستعاض برضا الله عنه. يعد التغير المتسارع

الذي يهدد البيئة يؤدي الى زيادة المخاطر على النظام البيئي والنظام الاقتصادي على المدى البعيد وتزيد الاثار السلبية التي تصيب حياة البشر وخاصة في الحقبة الزمنية التي تعرف باسم الانثروبوسين(anthropcene) التي يعيش فيها الانسان ويساهم في تغيير معالم ومظاهر كوكب الارض.

وقد عزز هذا الاتجاه لديه دراسته للدكتوراه التي اخذت فكرة (التلوث البيئي بالنفط) بالغ اهتمامه، مما دعته في ان ينشر معلومات مهمة عنه بكتاب جديد تحت عنوان (بيئتنا– الضحية الصامتة)[18].

ان الشعور بالرضا عند تحقيق رغبة الاخرين عندما يتمنون عليه ان يهديهم عملا تميز به.. انه شعور لطيف

(18) كتاب عبارة عن بحث علمي يتألف من اكثر من 240 صفحة ومزود بأكثر من 150 صورة ملونة اعتمد في مواضيعه على حوالي 68 مصدراً اجنبياً اهداه الى روح مشرف اطروحته في الدكتوراه .الفقيد د. احمد عبد الجبار شنشل والى روح أحد طلبته الذي كان هو مشرفا على اطروحته لنيل الدكتوراه وهو الفقيد د. علي جعفر وتوت من صادر عن مكتب زاكي للطباعة في بغداد .

حتى لو كان العمل يتطلب جهدا شاقاً ولكن طريق الخير لاياتي عبثاً بل بحكمة وتقدير بليغين لتحقيق المراد ولابد ان يتوافق مع الدعاء الى الله ان يمنحه القوة على الابداع والتجديد. كانت رغبة بعض زملائه عليه ان يكون كتابه الاول متضمناً بعض المواضيع الحديثة لكي يتسنى لهم طرحها لطلبة الدراسات العليا وآل على نفسه ان يحقق لهم أمنياتهم ومبتغاهم فطرح نسخة محدّثة ومطوّرة من ذلك الكتاب تم فيها مراجعة عامة لمفردات الكتاب وتحديث بعض الفصول مثل فصل اشعة اكس وفصل التحليل النووي المغناطيسي واضافة فصل مطياف الكتلة وفصل نظام جودة المختبرات (2021).

الفصل الثالث والعشرون

العطاء والحياة توأمان

(1)

الان هو يستذكر حين كان تدريسيا لمراحل مختلفة طوال احدى واربعين سنة، خرجت من تحت يديه اجيالٌ كثيرة وكان يرى سعادته بان يرى طلابه قد فهموا الدرس فقد كان يغضب حتى الصراخ من يهمل واجبه ويواسي من اساءت الحياة له ويثني على المجتهد والمتفوق منهم .. كانت حياته عبارة عن طبشور وسبورة وكتاب وبحث وطلاب ..الى ان اكلت حياته سني عمره فغدا الان متقاعداً. ومرت الايام بجانبه دون ان يدري الا السنين التي قضاها في العسكرية كانت تمر بسرعة السلحفاة الهرمة يعدّها بالساعات لثقلها لانها خارج منهجه بل دفع لها عنوة وكان همه ان يبقى على قيد الحياة من حرب مجنونة ..وطوال خدمته في التعليم كانت بمرحلتين فالدولة في السابق تكن

للمعلم احتراما من دون مرتب يعزز كرامته اما بعد ذلك منحته راتبا لائقا ولكنها سلبت منه كبرياءه..أحيل على التقاعد عام 2018 بعد ان اكمل السن القانوني للتقاعد 65 سنة وكان متوسط الجسد خالياً من شيب الراس الا في جوانبه وشواربه لم يكمل حلمه وهو يشعر ان لديه كماً من العطاء وهو يستذكر عنوان كتاب(مت فارغا) قرأه ليس ببعيد للكاتب الامريكي(تود هنري) إذ يحفز الانسان إن يفرغ مالديه من علوم ومعرفة وافكار قبل فوات الاوان اي بمعنى آخر.. لاتغادر الحياة وانت تحمل افضل مالديك. كان شديد الهمه يحمل في جنباته تماسك روح الضبط التي استقرت في ذاته بثبات عبر سنين عجاف قضاها في الخدمة العسكرية وما تكتنفه من مسؤولية الموقف والايثار..نعم كانت تجربة غنية رغم مرارتها..منحته التحمل والتحدي وروح التجدد..رأى في

نفسه لم تتهرَأ ذاكرته او نضب عطاؤه ..كسب ثقة اقاربه ممن لهم حظوة كبيرة في الاقتصاد والاستثمار واتخذت اجراءات فتح جامعة ومعهد أهليّيَنْ وعمل معهم لمدة سنة أستشارياً علمياً ويكون عند الافتتاح المسؤول الاول لأحدهما..ولكن اخذت الايام منحى اخر..واخيرا استقر تدريسياً لمادة الكيمياء في قسمي الصيدلة والاشعة لكلية اهلية.

(2)

اصدقاء في حياته

قد يرزقك الله في اية مرحلة في حياتك بأشخاص ليضيفوا دون منّةً او يكملوا دون تردد ما تتمناه، وقد توجه الاقدار ان يلتقيهم بمسالك الحياة المختلفة، ويثبت بإصرار في نهج حياته كأصدقاء..

الصداقة هي واحدة من أعظم الروابط الالهية التي يمكن لأي شخص أن يرغب فيها، فهي ليست مجرد موضوع يجعل الاشياء أكثر جاذبية، ولكنها أيضًا تضيف حيوية

هائلة إلى حياتنا. لا يمكن وصف الفوائد الحقيقية للصداقة بكلمات بسهولة لأن جمالها الحقيقي لا يمكن إلا أن يتم اختباره. فالصديق يساعدك على اتخاذ الخيارات الصحيحة في أوقات الارتباك والشك ويمنحك الراحة في التغلب على حزن الخسائر من أي نوع.

ومحظوظون أولئك الذين لديهم أصدقاء يمكن الوثوق بهم، وكان جميل من اولئك الذين توّجهم الحظ في كل مراحل حياته وكلٌ منهم كتب وشماً جميلاً على بساط حياته.

لم تلبث الايام الا ان اهدته باقة ورد تكتنف في شذاها عبير المحبة والود بمجموعة اصدقاء من مختلف المناحل والامشاج والاعمار والتوجه والمهن، تسري بينهم الفة حرصوا عليها باصرار النبلاء واداموها بسخاء الكرماء، كان يسعد بلقائهم يومي الاثنين والخميس من الاسبوع تجذبهم لعبة الدومينو وهم ينثرون عطر الفرح والبهجة ويتبادلون اجمل عبارات الشوق وصدق الاحساس تغور

في نفوسهم لتخلد في الذاكرة احلى الذكريات واجملها ويزيد من روعتها شهد التواصل الممتع الذي يلفظ ارهصات نكد الايام كلفظه النواة. كان التسامح والتعاطف وشاحاً انيقاً يسمو على عتبة هذه المجموعة وكما يقول ابو فراس الحمداني:

ماكُنتُ مُذ كُنتُ إِلّا طَوعَ خُلّاني.. لَيسَت مُؤاخَذَةُ الإِخوانِ مِن شاني

يَجني الخَليلُ فَأَستَحلي جِنايَتَهُ.. حَتّى أَدُلَّ عَلى عَفوي وَإِحساني

في كل لقاء كأنهم يجتمعون على موقد نار في ليالٍ كانونية ويرسمون لوحة فنية من الفكاهه يشترك الجميع فيها وتتوزع الادوار دون تكلف، سيمفونية عذبة يتناوب بادائها جمال وعماد وقصي بروح الدعابة تتخللها نكات مازحة تضفي بهجةً وانشراحاً يرفع من نسقها شاكر وثائر ويشاكسهم حسن وسيف بروح مرحة وقد يتدخل قاسم بتصريح يثير القاً ووهجاً للقاء مما يخرج الجميع عن صمتهم، اما اسعد فكان الضابط لديمومة هذا التجمع لما يتمتع به من روح الجدية والالتزام، واذا حضر احمد يزداد

اللقاء متعةً بتعليقاته المحببه التي تنعش النفوس وتطرد الضجر.

كانت نوبات الضحك السمة الطاغية عند تجمعهم في حي البنوك والكراده بالتناوب، وتذكر (صوفي سكوت) استاذة علم الاعصاب الادراكي للاصوات في جامعة لندن (عندما تضحك مع الناس، فانت تظهر لهم انك تحبهم وتتفق او تنسجم معهم، والضحك دليل على قوة الصداقة)

هذا النوع من اللقاءات نادرا ما يحدث، ولكن من حسن حظ جميل ساقه القدر ان يكون جزءا منها ويشعر بالفخر لرفقتهم وكان يثير المناكفات الساخرة بلهجة جنوبية بدأ الجميع يتحببها ويرددها بعد ان كان البعض يمتعضها، كان اللقاء استراحة ينتظرها الجميع ليبددوا متاعب الحياة الصارمة ويكتسب كل منهم مناعة ليقارع مايبدو له من الايام القادمة.

واهتداءً بقول الشاعر العباسي ابي الفتح البستي:

نصحتُكَ لا تصحَبْ سِوى كُلِّ فاضِل.. خَليقِ السّجايا بالتَّعفُّف والظَّرفِ.

(3)

موعد لم يحتسبهُ

وآخر اصدقائه التي وفرت له صيرورة العطاء وديمومته بعد ان جفت السبل وارتبكت الموازين انبرت تلك الشخصية بين ركام الاحلام ليعزز عنده ثقة العطاء وتوفير مساحة ليزرع فيها فسائل الفضيلة آخر ايامه، ويضع ثقته به من دون غيره إنها بركة أهداها الله له بطيبة خاطر هو السيد(يعقوب) صديقه من مدينة اربيل.

يذكر المتنبي:

شَرُّ البِلادِ مَكانٌ لا صَديقَ بِهِ.. وَشَرُّ ما يَكسِبُ الإِنسانُ ما يَصِمُ..

التقاه عدد من المرات وكان ممولاً ناجحاً لاحدى الجامعات الاهلية وتوثقت علاقتهما.. كان شاباً طموحاً ذكياً عاند نكد الايام بإصرار الطموحين، اختبرته الحياة وصلُبَ عوده....بدأ حياته بمشاريع صغيرة طموحة ووجد ان النجاح مصدره الاصرار والطموح والرزق الحلال بل

كان خزيناً لا ينضب من مقارعة السنين، وفي يوم اتصل به من بغداد وحدد موعداً معه وفاجأه ان يكون عميداً للكلية! التي اشترى محتوياتها توّاً.. كان اختياره ليس عبثا بل لديه كل المعلومات عنه ولخصها بعبارة واحدة: (انك نظيف)..

قَبِلَ المنصب حينها على مضض خشية من الظروف التي قد تغدر به، او ان يكون غير مؤهلٍ لهذه الثقة. إن ايمانك بشخص وتأتمنه على اموالك ليس معياراً سهلاً، ولكن السيد (يعقوب) كان صائبا في اختياره، لانه وثق به بفطرته التي لم تخنْهُ اما هو فكان يعمل جاهدا ان يرد هذا الجميل، بنقاء السريرة وطهارة الواجب، ينشد منهما رضا الله.

(4)

المهمة الثقيله

الكليات الاهلية هي احدى مؤسسات التعليم العالي التي تقع عليها مسؤولية وواجبات مهمة في مجال اعداد وخلق الكوادر الوظيفية والعلمية المتخصصة الوسطية القادرة على قيادة الانشطة الانتاجية المختلفة في المجتمع وهي احد روافد الانشطة الخاصة في الميدان العلمي والتربوي وهياكلها التنظيمية في خلق تنمية بجوانبها الاقتصادية والاجتماعية.ان نقصان الكادر التدريسي فيها واغلبها لاتمتلك أبنية مملوكة ونقصان المختبرات والتجهيزات الملحقة بها وعدم الاستقرار في سياسة القبول ولن تستغل الطاقات المتاحة فيها مما يفضي الى تدني المستوى العلمي للمتخرجين برغم ارتفاع كلفة التعليم الجامعي الاهلي.

هذا ماوجده جميل عندما التحق بأحدى مؤسسات التعليم العالي الجامعي..ألقى محاضرة على طلبة قسم الصيدلة

كان عددهم مايقارب مائتين وخمسين طالباً وطالبةً..هذا العدد مقزز ومرفوض للامانة العلمية بل واجهة رخيصة للاستغلال المادي الذي يدفع الطالب تسعة ملايين دينار ولا تقدم له ابسط المستلزمات الضرورية..لم يستسغ هذا العدد واستهجنه وطلب تحويله الى قسم الاشعة كان عدد الطلاب في كل مجموعة قريباً من التعليمات.

التحق بعمله الجديد وكان في جعبته أفكار يروم تبنيها في هذه المؤسسة ولكنه فوجىء بالهيكل التنظيمي الاداري والعلمي لهذه المؤسسة فقد غابت عنه جميع مستلزمات الجودة والعمل الجاد في مفاصلها. كانت الفوضى واللاتنظيم هو السائد في جميع بنيتها..كانت وحد التسجيل غائبة تماما عن اي جهد تنظيمي ولم تتبع التعليمات المفروض أتباعها، والتخبط واللامركزية هي السائدة بشكل علني، ولكن سيد يعقوب كان رجلا طموحا ومتعاونا وله خبرة عالية في تغيير مسار الكلية نحو الافضل . عمل بهدوء وبتأنٍّ وبمساندة صديقه ليحدد الاوليات وفي مقدمتها متابعة محاضرات الطلبة والتي كانت اغلبها الكترونية

بسبب وباء كوفيد 19 وهذا الجانب اخذ مجمل اهتمامه وخاصة في بعض الاقسام التي تفتقر الى الملاكات التدريسية ذات الاختصاصات النادرة. كان النمط الدراسي التي تتبناه الكلية غير خاضع للمقاييس العلمية ناهيك بالجوانب الادراية ووحدة الحسابات جميعها مرتبكة وتحتاج الى اعادة تنظيم منذ تاسيسها وهذا عمل مضنٍ لايمكن أزالة الستار عنه بشكل يسير لوجود تداخلات معقدة. وتم تشكيل لجان مختلفة لمراجعة ارشيفها واتخاذ القرارات الصائبة فقد وجد كثير من الاخطاء غير القانونية. جاء تكليفه بعمادة الكلية في بداية شهر نيسان رسميا مما سعى ان يتخذ القرارات المهمة في توجيه الكادر الاداري والتدريسي ضمن تعليمات واضحة لتكون سكة القطار تتضح فيها معالم السير للجميع. اصبح عدد الاقسام في تلك السنة سبعة بعد فُتح قسما طب الاسنان وتقنيات المختبرات الطبية وباعداد قليله جدا غير ان اغلب المقبولين هم من اصحاب المنحة المجانية التي تكفل بها السيد يعقوب. لم يجد شيئاً ذا مشكلة الا ابدى لها حلا

يسيرا ماعدا بناية الكلية، فانها لم تخضع الى معايير المؤسسات الجامعية وكانت مثلمة حاضرة لكل من يريد السوء لها وتعرض هو شخصيا بمحاكاة غير مبررة ومرت تلك السنة بثقل كبير. لم يهدأ له بال حتى سعى ان يختار بناية جديدة مؤهلة قريبة من البناية الام لقسمي التخدير والاشعة والسونر تم ايجارها. وبقى يبحث عن الافضل وبجهود صديقه الممول بعد الحاحه المستمر تم اختيار بناية جاهزة خاضعة لمعايير التعليم الجامعي وهي مصممة نحو ذلك فقد كانت هدية نفيسة لعموم منتسبي الكلية في وقتها وبجهود مضنية من قبل السيد(يعقوب).

(5)

صراع بين التمني والواقع

ارتدت الكلية ثوبها الجديد وبحلتها الانيقة التي بهرت الجميع ومن ضمنهم اللجان الوزارية المقيّمْه التي اشارت الى التفرد في هيكلها ضمن موقعها الجديد وخاصةً مبادرة تجميع مختبراتها في بناية منعزلة يحقق لها عنصرين مهمين وهما ضمان السلامة والبيئة الصحية. ولكن للانصاف كانت غير رغبته بسبب انها بعيدة عن المصدر الرئيس لمصادرها البشرية واصبحت قريبة جدا من جامعات وكليات لها عمق تاريخي.

لم يهدأ له بال واستجابةً لطموحه غير المحدود يسعى دوما ان يجعل شعار نظام الجودة (كل يوم تعمل شيئا جديداً) وبخطى حثيثة ليرى الصرح العلمي الذي تبناه ان يشار له من بين مصافّ الجامعات الرصينة..وهذا ليس حلما بل يبارك الله عندما تسعى الى الحسنى وتناله حتى ولو بعد حين..ان الايمان بالحياة هو بعينه ايمانك بالعلم

الذي ليس له حدود فينقب عن البواطن ليسخرها طائعةً لسعادة الانسان.. قال الله تعالى: (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً..الاسراء85).

اخذ العمل يرتبك نتيجة الضغط اليومي مما يثبط اندفاعه في اتخاذ قرارات مهمة في تطوير المؤسسة ناهيك بان كل القرارات المهمة تحتاج الى دعم مالي وهذا يتطلب ان يكسب رضا وقناعة ممول المشروع مما يسبب تلكؤاً وتقصير في جميع مرافق المؤسسة..هذا الاتجاه لم يرُق له فقد صقلت حياته العلمية والعملية واسع الجدية والعقلانية والتأني والابتعاد عن مايثير مشاعر المنتسبين في المؤسسة..ان العمل في التعليم الجامعي الاهلي عملٌ شاق وصعب التوازن بين نزاهة النفس وما تدفعه له الظروف الملبدة بغيوم الاهمال وعدم الانتباه للجانب العلمي والانساني.

قرار النقل بحد ذاته كان ايجابيا ولكن الموقع الجديد غير مدروس وكانت نتائجه غير مرضية كما اسلفنا توا يرافقه

الاستياء العام من قبل الطلبة والموظفين لانهم كانوا متوافقين مع الموقع القديم لقربه عن اماكن سكناهم مما جعلهم ينقلون معاناتهم وسخطهم الى جميل وهو يرى لهم الحق ولابد من مداراتهم بحكمة وامتصاص غيضهم الذي فرضه الموقع الجديد مما بذل جهداً مضنياً لتهداتهم..انها معاناة حقيقية..ندم حينها وتاسف لقبول المنصب فكان قرارا غير صائب وتجربة مرة..خاض كثير من المصاعب سابقا ولكن كان صراعا ليس صنيعة يده مما يجعله طائعا لقدره.

انه الان أُقْحِمَ في بيئة صاخبة غير ما يطمح له مما اخذ يؤنب نفسه لانه قَبلَ ان يغامر بسمعته العلمية والاجتماعية بعد ان احيل على التقاعد لبلوغه السن القانوني..انها اجواء لم يجد فيها نفسه أكاديمياً ملتزماً يمكن ان يبدع ويطور وليس له حب في المال والجاه بل كانت تجربته أخذت تأكل من جرف ضميره وصحته ويشعر بازمة نفسية خانقة لان العمل في هكذا مؤسسات تحتاج الى الكثير من الثوابت المهمه التي ترتقي بها

لتجعل منها صرحاً اكاديمياً يُدرج ضمن المؤسسات الاكاديمية المعتمدة.

يأمل في المستقبل بجهود الخيرين وهم كثر ان تجد هذه المؤسسات نصيبها من الاصلاح والهدى وهذا ليس ببعيد.

الخاتمة

في هذه اللحظة وهو يختم ذكرياته..يستذكر ماذكره دكتور علي الوردي (من خصائص الطبيعة البشرية انها شديدة التاثر بما يوحي العرف الاجتماعي إليها من قيم واعتبارات)[19].

كان جميل يتوسم منذ طفولته بالانسان المعتدل المهذب عسى ان يروق للاخرين وينال رضاهم ويكسب ودهم وينحو عن اقرانه بالتميز عنهم، عاشت هذه الافكار في لب جنباته وقد اثقلته كثيرا وجعلته حساساً مفرطاً في التحفظ على مانقشته الايام الخوالي من اعراف وتقاليد كامنة في اعماق ذاته برغم ارهاصات الحياة المستمرة ولكنه لم يرف لها جفن..خاض غمار الصعاب بروح مقدامة دون كلل ولاهوادة لتحقيق حلمه الذي بات كالنَفَس لم يفارقه وبذل الغالي والنفيس من اجل تحقيقه كما

---

(19)(الدكتور علي الوردي، وعَاظ السلاطين.. ص18)

اسلفنا.. واليوم وهو يتصدر الموقع الاول لمؤسسة اكاديمية مهمة لم يستطيع ان يهادن على ماكسبه منذ زمن بعيد ويداهن الاخرين وياخذ بتلاليبهم ..بل حاول ان يتباهى بتلك الصفات التي جبل عليها ويحافظ على احترام الناس له بل يشار له بالبنان من التميز وهنا نما صراع نفسي قاسٍ بين مايريده من الاستقامة والامانة والنظام في العمل ومايريده الاخرون دون ذلك وهنا يفرض نفسه السؤال الأتي..

هل يقاوم جميل تلك الظروف والى اي حد؟..الجواب ..الله سبحانه وتعالى وحده يهدي الاقدار ما يشاء.

الفهرست

الفصل	الصفحة
الفصل الأول: الولادة الشاقة	12_3
الفصل الثاني: طفولة على حافة الاهوار- عبث الطفولة	24_13
الفصل الثالث: رسل الرحمة- حلم في مدينة	36_25
الفص الرابع : درس في الحياة- الموروثات الريفية	44_37
الفصل الخامس: الفرصة الاولى- العواطف المنكسرة-اضواء المدينة	58_45
الفصل السادس: النجاح... فرح لم يكتم- صبر طائر البطريق	72_59
الفصل السابع: حسنى الاقربين-	82_73

الفصل الثامن : السنة المشؤومة– الصراع بين اليأس والطموح	93_83
الفصل التاسع :الهروب الى بغداد– باص رقم (73)– صاحب المكوى	105_95
الفصل العاشر: دروس وِعبر على هامش الجامعة– ذكريات جامعية– لحظات الوداع	119_107
الفصل الحادي عشر: معترك الحياة الجديد– متاعب مدرس	128_121
الفصل الثاني عشر: اول الغيث قطر– بر الوالدين– مشاعر بين...	134_129

الفصل الثالث عشر: سنوات الجحيم- قافلة الموتى- الحب سيد في كل الظروف- ويستمر ارتداء الحزن.	150_135
الفصل الرابع عشر : زواج على هامش الحرب- وشاح الموت	154_151
الفصل الخامس عشر: مغامرة الموت- تبا للياس- المرأة تاج الصبر	164_155
الفصل السادس عشر: رد الجميل- الموت لايتغير ابدا- تلاقي الارواح	181_165

الفصل السابع عشر: الطريق الى منصة العلم– المشوار الصعب–	198_183
الفصل الثامن عشر: القرار الاخير– الخبر المشؤوم– احلى البشائر	205_199
الفصل التاسع عشر: الوقوع في شرك المتزلفين بالدين– العلم حارس وصديق– الحلم ..	224_207
الفصل العشرون: العاصفة السوداء– أنين العاصمة)بغداد)– الوشاح الاسود في الجامعة	238_225
الفصل الحادي والعشرون: زكاة العلم– الخير ياتي سريعا– الحسنة الدائمة	250_239

الفصل الثاني والعشرون: فرصة العمر– الادعاء المزيف– العطاء المثمر	268_251
الفصل الثالث والعشرون: العطاء والحياة توأمان– اصدقاء في حياته– موعد لم يحتسبه	283_269
الخاتمة	286_285
الفهرس	291_287

الحلم ولد هناك
د. جميل موسى ضباب الزيدي
٢٠٢٢

شاء القدر ...
أن يصوغ باتقان حكاية ود صدفة ...
لم يكن ينتظرها او يبحث عنها ...
بل كانت احلى من الف ميعاد ...
نعم كانت ابهى وامتع صدفة في حينها ...

الاستاذ الدكتور
جميل موسى ضباب الزيدي

الحلم ولد هناك

(سيرة ذاتية)

مكتب زاكي للطباعة
بغداد ـ باب المعظم
رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٩٣٦ لسنة ٢٠٢٢